الكتاب الثانى

نقد المعرى لعلاقات الافعال

الفصل الأول

الحكام والمحكومون

---

(١) الملوك والرعيـــة :

لقد اضطرب حبل الأمن فى أيام المعرى . وأنبأنا تاريخ تلك الحقبة أن بنى حمدان كانوا آخر عهدهم على حلب ، والمعزة فى متناول أيديهم فلا يستطيعون حماية بلادهم وثغورهم . فإن الروم من شمالهم كانت تجاذبهم الغارة والعدوان . وإن الفاطميين جنوب صقعهم كانوا ينالون منهم بالقلق والانزعاج يرسلون إليهم من مصر قوّاداً يستنجزون حربهم ، ويطلبون جلاءهم . وفتّ فى أعضادهم داء دخيل ، فقد عدا بعض أمرائهم على بعض وأدركهم من آفات الأمم ما أدرك الأمويين أواخر عصرهم لما نصروا عدوهم على أنفسهم بانقسامهم ، أفلم يروِ التاريخ عن بنى حمدان أنهم جاروا على أهل عمومتهم بنى معروف حتى أخرجوهم من دينهم إلى النصرانية فراراً من عتوّهم واعتسافهم.

قال أبو الطيب المتنبى عن سيف الدولة :

تشرّف عدنان به لا ربيعة وتفتخر الدنيا به لا العواصم

وكان أبو العلاء قريباً فى عصره منه فقد توفى سيف الدولة سنة ٣٥٦ وكان مولد أبى العلاء ٣٦٣ فجاء حكمه عليه ضامناً للصواب لقرب الزمن بين الرجلين.

ولكن قال عنه صحيح التاريخ إنه كان من جبابرة الطغاة . فكم آمن شرّد ومظلوم قتّل ، وبرىء عذّب وضعيف بغى عليه . شهد أبو العلاء عليه بالجور[1] فذكر بطشه وفضّل عليه داعى الدعاة فقال وهو يعنيه (ذلك الرجل كان صاحب سيف وسيدنا الرئيس الأجلّ صاحب ورع ودين وهداية ينتفع بها المهتدون) .

وذكروا أن قاضية أبا الحصين كان يشهد حروبه ويجوس معه خلال الأشلاء بعد هدوء المعارك ليتفقد جرحاه . وكان من قول هذا القاضى (كل من هلك فلسيف الدولة ما هلك) .

فلما مات أبو الحصين فى وقعة من الوقائع وكان سيف الدولة يعد صرعاها بعد هدوئها رأى بين الهلكى قاضيه الذى أطمعه بالجور وحبب إليه المظالم فداسه بسنابك جواده ، وقال له مخاطباً : (إذهب لا ردك الله فقد كنت تزيّن لى الباطل وتحملنى على الظلم) .

وكان الناس على دين ملوكهم . فإذا انحدرنا من الملوك والأمراء إلى السراة والأغنياء ، والقضاة والحكام ، وأهل السياسة ؛ رأيناهم من بَغْى ملوكهم ورثوا ، ومن نار جورهم اقتبسوا . ففى مثل هذه البيئة من شمالى الشام المضطربة على كف الزمان وقد تداولها بغىُ العدو ، وظلم القريب . عرف أبو العلاء طائفة من العتاة الغاشمين ، وسدّد إليهم الحظ الإمرةَ على الناس فوقعوا على أموالهم وقع البزاة على بغاث الطير . وجاءهم المتظلمون يشتكون فاجتبَوْا خصماً ، واجتووْا خصماً ، ونزعوا يد المالك ووضعوا يد الغاصب . وكان معهم من بطانة السوء قوم صلدت قلوبهم ، وصفقت وجوههم فليس لأدمع الباكين إلى رحمتهم من سبيل . تلك صورة من نقد أبى العلاء للملوك والحكام وجورهم على الرعية رسمها بقوله :

أرى أمراء الناس يمسون شرّهم إذا خطفوا خطف البزاة اللوامع

---

(١) رسائله إلى داعى الدعاة ط السلفية ص ٣٠

وفى كل مصر حاكم فوقه ٌ وطاغ يحابى فى أخس المطامع
يجور فينفى الملك عن مستحقه فتسكب أسراب العيون الدوامع
ومن حوله قوم كان وجوههم صفاً لم يُلطَّخن بالغيوث الهوامع

فإذا عاين أبو العلاء هذه الظُّلامة فى ساح الحكام حفزته إلى تنبيه الشعب حوافز المصلحين ممن ألقيت عليهم تبعات السكوت وأمتهم تشقى .

بَصَّر الناس بحقوقهم الهضيمة ، ووقف للأمراء والحكام بمرصاد النقد . وكان فى دهر العربية سباقاً إلى فتح أعين الأمة وتبصيرها بحقوقها وقال من قبل (جماعة حقوق الإنسان) فى الزمن القريب : « الأمراء ، للأمة أجراء ! » :

مُلْ المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدَوا مصالحها وهم أجراؤها

ثم بدا أشد تبييناً للأمور ، وأكثر تنبيهاً للشعب إزاء الحكومة فقال :

إذا ما تبينا الأمور تكشفت لنا وأميرُ القوم للقوم خادمُ

فأين منه الثورة الاجتماعية الحقوقية قبيل الثورة الفرنسية ، حين رفع العقيرة جان جاك روسو وڤولتير ومونتيسكيو أمام لويس الرابع عشر فى فرانسة فكتبوا جميعاً بقلم ، وهتفوا جميعاً بلسان : (الملك خادم الشعب) .

كذلك ثار أبو العلاء فى محبسه ثورة الأسير على القدّ وراء خصاص الحديد ، فلم يجد سبيلا إلى كشف الغمرة عن روحه سوى هذا الشعر الواعى الذى قاله لينبه به سواد الناس إلى حق أصبح فى عصرنا أسًّا (للقانون الأساسى) وهو أن سلطة الأمة هى التى ينبغى أن تُستمد منها الحكومة ، كما يقول (سعد باشا زغلول) فى كلمته المشهورة : « الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحكومة » .

واتفق لأولئك النفر من المصلحين الذين تقدموا الثورة فى فرانسة فأيقظوا بصيحاتهم أعين الغافين ، ونبهوا الغافلين ، أن هبت فى وجوههم

بطانة المُلك ، وأعوان الحكم بضروب العداوة وأحاطتهم بالأرصاد ، وسلطت عليهم من دعاتها من يرجمهم بالكفر والتجريح .

وكان لانتعاشة العصر حظ فى سطوع النور من مشاعل تلك الشِّرذمة الثائرة بآرائها . ولعل الجور والمصادرة ، والسجن والعدوان كان لها أثر كبير فى تهيئة النفوس إلى الثورة فكانت كالبارود الذى ينتظر جُذوة نار . فأثمرت تلك الأقلام فى شحذ العزائم ، والعمل على اندلاع الثورة للتحرر من أصفاد الطغاة .

وما أرى أبا العلاء فى هذا النقد الصاخب الذى هاج به شعره على الأمراء والملوك والرؤساء ، إلا ضرباً من ضروب الثورات الفكرية التى تتقدم السلاح والدماء .

لكنَّ المعرى قد أخطأ فى سكب إصلاحه بقوالب هذا الشعر الذى لزم فيه ما لا يلزم ، وعقّد معانيه ، وأوعر مبانيه على الشعب الذى ينبغى أن يوضع لسواده شعر سهل المبانى ، واضح المعانى ، ليُرجى تأثيره فيه فيوقظ عيونه النائمة ، وينبه نفوسه الوانية الخابية .

أخطأ المعرى فى أسلوب إصلاحه ، فكان بتنكبه السهولةَ إلى الحزونة قد جرَّ الخسارة على الشعب فلم ينتفع به الشعب الغافل ، لأن هذا الشعب لا يستطيع أن يفهم عنه لغة أملاها للخاصة دون العامة . وخسارة ثانية أنه بنقده هذا سلط على نفسه عداوة المنقودين من الملوك والأمراء والرؤساء . إذ ليس منتظراً من هؤلاء الصمت والسكوت ولقد كان يكاتم أسماءهم آونة ويكتفى أن يقول :

وأرى ملوكاً لا تحوط رعية ... فعَلامَ تؤخذ جزيةٌ ومكوس

أو يُعرّضُ باستبداد أحد الملوك الطاغين فيقول :

ومن شر البرية رَبُّ مُلكٍ ... يريد رعية أن يسجدوا لهْ

وآونة يصرّح باسم واحد منهم وهو صالح بن مرداس الذى كانت بطانته

محشوة بكل فاسد دسّاس فيتمنى لو كان اسمه على مسماه ، ويسوق لذلك اسمين هما القاهر والطاهر ولعله يريد بهما ملكين إذ كان الأول اسماً لأحدهما فيقول :

يا صالحُ اجعل وصف شخصك كاسمه مثلين إنك فى بحـــارك ماهرُ
كذب الذى سمى المملّكَ قاهراً نحن الأذلة والمليك القـــاهر
وكذاكَ يدعى طاهراً من كلّهُ نَجَسٌ ويُفقدهُ فى الأنام الطاهر

وأراد بالمليك الله تعالى أو جعل الذل شاملا له والمليك القاهر المخلوق .

وبقى أبو العلاء فى نقده صاحب أسلوب واحد يسم به مواضيعه المختلفات بميسم واحد . فيعمد بادى الرأى إلى النقد والتجريح . ويحمل الحملة الشعواء . ثم يبدو له أمر فيقلل من عنفه ، ويرضى بالواهن الموجود . فإذا فرغ من نقده للملوك والأمراء — فبيّنَ مظالمهم وعسفهم ، ووجه الباطل فى أخذهم الجزية والمكوس ، واحتجانهم أموال الأمة وانتهى من تنبيه الشعب الغافل إلى الأخذ بحقه ومطالبته الحكم ؛ — اعتدل حسب أسلوبه فى فى النقد وكأنه خشى مغبة الأمر ، وفداحة الخطب أو لقى من الملوك تهديداً ومن الأمراء وعيداً ، فانكفأ دون قوله الأول ، يوصى بإطاعة الملوك ويذكر ضرورتهم للناس ، وأن على المرء احتمال ظلمهم لأنهم يحمون الذمار وما خلا ملك من الملوك من الظلم والجور فيقول :

واخش الملوكَ وياسرها بطاعتها فالملك للأرض مثل الماطر الساقى
إن يظلموا فلهم نفع يعاش به وكم حموكَ برَجْلٍ أو بفرسان
وهل خلت قبل من جور ومظلمة أرباب فارسَ أو أربابُ غسّان

وعجبٌ لناصر خسرو القُبادياني . فلقد روى هذا الرحالة العلوى الفارسى[1] أنه عند ما زار معرة النعمان ، كان بها رجل ضرير يدعى أبا العلاء وكان (أمير

(١) سفرنامة بالفارسية لناصر خسرو طبع سنة ١٣٤١ هـ ذكر كلامه الراجكوتى فى كتابه (أبو العلاء وما إليه) ص ٢٨ والدكتور طه حسين فى كتابه (تجديد ذكرى أبى العلاء) ص ١٧٧ وكتاب (تعريف القدماء بأبى العلاء) ص ٤٦١ . وترجم هذا الكتاب إلى العربية الدكتور يحيى الخشاب وذكر المعرة فيه فى ص ١١ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٤٥ .

البلدة) وله من النعمة والعبيد والخدم ما يستكثر وكان جل أهلها كالعبيد له إلا أنه اتخذ بابه طريق النسك . . . وبلغنى أنه فتح بابه وتولى عنه نوابه وعماله أمور البلدة إلا فيما يهم فيرجعون إليه وهو لا يمنع أحداً لما آتاه الله . . . ولما وصلت إليها كان حياً يرزق » .

إن هذا لخبر عُجاب . فما روى أحد من سيرة أبى العلاء — على كثرة الراوين وتعدد المترجمين — مثل هذا النبأ الذى جاء به ناصر خسرو الفارسى وقد مر بالمعرة زمن أبى العلاء كما يقول .

فأين المعرى من الإمارة والخوَل والخدم ، وأين هو من العمال والعبيد والحشم ؟ فإن كانت التوراة تقول فى بعض كلامها المأثور (من فمكَ نُدينك) فما أحرانا أن ندين أبا العلاء بما نطق به شدقاه ، وفاه به لسانه .

ليس فى شعره كله ولا فى نثره جميعه مما وصل إلى أيدينا ما يلمِّح أو يومىء إلى أنه كان أميراً على المعرة أو حاكماً عليها . ولقد ساق فى شعره طائفة من اللمزات والنقدات لأعمال الأمراء ومظالم الملوك . وكان فى ذلك مبصّراً للشعب الخانع ومنبهاً للأمة الغافلة . وكان يتجافى عن مصاحبة الملوك . ومن طبعه الصدوف عنهم ، فكيف يكون منهم وهو القائل بابتعاده عن الأمير (قرواش) ووزيره (المهذب) :

رحلتُ لم آتِ قَرواشاً أزاوله ولا المهذبَ أبغى النَّيْلَ تقويتا

وكان من دأبه أن يذم الأمراء الجائرين وينقدهم ، ويعرّض ببطشهم وظلمهم . إنه ليمضى على سَنَنٍ مطّرد ثابت إذا جرى عليه لم ينقضه بالعدول عنه إلى فعل آخر يغايره ، ترك أكل اللحم فثبت على الترك حتى مات ، واعتزل الناس فضرب على نفسه حبس الجسد حتى فارق الدنيا ، ورغب عن الزواج فلم ينقض نيَّته .

ألم يكن زاهداً فى عرَض الدنيا وجوهرها لا يسره أن يكون ملكاً ؛ لأن القناعة قد أغنته فيقول :

ما سرّنى بقناعة أوتيتُها فى العيش مُلكا غالبٍ وذِمار

ولو رجحنا بالظن أن ما قاله ناصر خسرو يمكن وقوعه فيكون للمعرى إمارة وملك وعمّال وعبيد ومال يستكثر ، فكيف نصنع ببيته الذى يقول فيه :

لا ملكَ لى وأرى الدنيا تحاصرنى وما حجبت وقد لاقيت إحصارا

إن كان فى مجال الاحتمال قبول قول الرحالة الفارسى ، فإنى أجد الظرف المواتى لأبى العلاء فى أن يبدوَ أميراً على المعرة ، هو قبل اعتزاله واعتناقه الزهد مذهباً . فكان يومئذ من قوله ما يدل على الرغبة فى الملك والطمع فى الإمارة ، ويمكن الحسبان بأنه حين لم يدرك ذلك رَضىَ بالزهد عزاء وسلوى كالرهبان ، فكان يقول وهو مفارق بغداد :

تأملنا الزمان فما وجدنا إلى طيب الحياة به سبيلا
ذرِ الدنيا إذا لم تحظ منها وكن فيها كثيراً أو قليلا
وأصبح واحد الرجلين إما (مليكا فى المعاشر أو أبيلا)

ولعله كانت فى نفسه هذه النيات قبل الاعتزال ولكنه لما اعتزل ترك الدنيا وزخرفها . وظاهرة هذه النية فى قوله إن على الإنسان ترك الدنيا إذا لم يحظ منها ولم يستطع أن يكون فيها ملكا .

أما زيارة ناصر خسرو للمعرة فكانت إبّان معتزل أبى العلاء — كما يقول — : (سلك طريق النسك وتردّى ببرجد فى بيته وكان يأكل كل يوم نصف مَنّ من خبز الشعير . . . ويصوم الدهر ويقوم الليل ولا يشغل نفسه بشىء من أمور الدنيا) .

فيصعب قبول روايته لأن شعر أبى العلاء زمن الاعتزال لا ينهض فيه دليل على قول هذا الرحالة .

(٢) القضاة والحكام :

هل نقد العلاء قضاة زمنه وصور مجالسهم حين يستمعون لقصص الناس كما كان يفعل أبو عثمان الجاحظ . فما زال فى مجاثم خيالى تصوير أبى عثمان لقاضى البصرة فى أيامه عبد الله بن سوار ، حين كان يجىء مجلسه فيحتبى فلا يحل حبوته ولا يفك رجلا عن رجل ولا يحرك يداً ولا يطرف فكأنه بناء صامد أو صخرة منصوبة .

ثم أخذ الجاحظ بعد أن رسم لوحاً لقاضى البصرة تخفق فيه ألوان التشبيه والتمثيل ، يذكر أعمال القاضى فى حياته ونسكه فى الدين .

وليس الكلام على هؤلاء القضاة حدثاً جديداً فى دهر العرب إلى أيام المعرى . فما أكثر القضاة يومئذ والحكام ! لقد كانوا يجمعون بين عز الدنيا وجلال الدين . فهم أهل صلة بالشعب ، وأهل آصرة للملوك والأمراء . وقديماً سبق فيهم من أدار فى دنيا العرب دفة السياسة فى بحر متلاطم بالمظالم والمكايد كأحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة . فقد توصل بعسفه وكيده إلى الإيقاع بالوزير محمد بن عبد الملك الزيات حتى سول للخليفة المتوكل على الله أن يضعه فى التنور ففعل . فمات الوزير مشوياً وشرب من الكأس التى أدارها على المصادَرين المظلومين . وتمكن ابن أبى دؤاد من أن يأتى بالجاحظ مصفوداً بالأغلال إلى مجلسه ثم فك قده وصفح عنه .

وإن تاريخنا القديم حافل بخطر القضاة فى السياسة العربية والإسلامية فقد كشف عن جلائل أعمالهم ومتباين أغراضهم . وكان ابن المقفع يروى فى مؤلفه كليلة ودمنة طرفاً من جورهم على الناس . وأدار أصحاب المقامات أخبار القضاة فى لباس الأقاصيص فكان الحريرى يجرى الرواية بين أيدى القضاة فينقد فى خلالها أخلاقهم واعتسافهم وتزمتهم وتظاهرهم بالتقوى .

فلا بأس إذن على أبى العلاء فى أن يجلد القضاة بالعصىّ التى طال ماجلدوا بها المتخاصمين . وهل فعل ذلك ؟

أحسب أنه قصر فى هذا المضمار . ولم يكن فى نقد القضاة إلا صاحب غيض من فيض ، وحسوة من كأس . وتعليل هذا سهل قريب .

كان جده سليمان بن داود قاضياً للمعرة وحمص ممتعاً بالعز ، له ما للحكام والأمراء من التكرمة والإجلال ، وكان أبوه عبد الله قاضياً وصف وقاره فى مرثيته له . وكان عمه أبو بكر محمد بن سليمان قاضياً أيضاً .

وقد صنف ياقوت قضاة بيته واحداً إلى جانب واحد حتى بلغوا فى ذلك البيت مالم يبلغه أحد فى القضاء . وذكر ياقوت طائفة منهم تولوا القضاة بعد موت المعرى حتى ردحة ممتدة من الزمن فى المعرة . وترجم المترجمون لأبى العلاء فقالوا جميعاً : (نشأ أبو العلاء فى بيت قضاء)

وكانت صلة أبى العلاء بوُدّ القضاة كبيرة فمدح منهم من مدح فى شعر شبابه وفى بغداد . فهذا أبو القاسم ابن القاضى التنوخى يولد له ولد فيهنئه أبو العلاء بقصيدة[1] وذاك أبو الطيب طاهر الطبرى القاضى الشافعى يعلم بوصول أبى العلاء إلى بغداد ونزوله فى (سويقة بنى غالب) فيرسل إليه أشعاراً[2] يسأله فيها فتح المغالق فى الأحاجى اللطيفة . فيجيبه أبو العلاء بمقطوعه من وزنها ورويها . ويمضى بينهما تراسل بالشعر ولعل أبا العلاء قد علم من خبر هذا القاضى أنه كان رقيق المال[3] (فقير الحال له عمامة وقميص بينه وبين أخيه وإذا غسل ثيابه بقى عريان) فتشفع عنده حاله لغيره من أحوال القضاة .

ويموت القاضى أبو حمزة التنوخى فيرثيه أبو العلاء بالدالية المشهورة التى أولها :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شاد

وعلى الرغم من صلة أبى العلاء الوثيقة بالقضاة والقضاء ، فقد ذكرهم بنقدات صائبات تدلنا على ما كان عليه القضاة فى أيامه . خاطب من أساء فى

---

(١) السقط فى شرح التنوير ج٢ ص ٨٦

(٢) و (٣) وفيات الأعيان طبع البارون أوسلان بباريس ج ١ ص ٣٢٨

الوداد والإخاء وكان قاضياً يؤثر منه الشر وقلة التقوى فقال فيه :

أما والله لو أنى تقيٌّ لما آخيت مثلك وهو قاضى
ولكن بتُّ شراً منك فعلا فاغنيتُ الوداد عن التقاضى

وكنت أتمنى أن أجد عنده نقداً لمجالس القضاء ، وما يتخذ المتخاصمان فى حضرة القاضى من الأحابيل ، وما يجترحان من الأباطيل . وكيف يميل القضاة مع الهوى، وهم لم يختلفوا فى عصر من العصور فإن منهم أبد الدهر قاضياً فى الجنة وقاضيين فى النار .

وقد عمم المعرى نقده فى هذا الباب ولم يخصصه . والظاهر أنه كان يشهد من مظالم الأمراء والحكام أضعاف ما يعرف من اعتساف القضاة . وكان ينظر إلى عترته وذويه فى المعرة فيرى كثرة القضاة فيهم ، فيهوله أمرهم هذا . فهو لا يريدهم قضاة بين الناس يجاسون للمتخاصمين فيدونون فى أوراقهم شهادات الشهود فيقول :

ولست بمختار لقومى كونهم قضاة ولا وضع الشهادة فى رق

وبحسبه أن يندد بأفعال من فوق القضاة ليسمع هؤلاء . فيقول لوالى المصر :

أيا والىَ المصر لا تظلمن فكم جاء مثلك ثم انصرف

ويرى إلى هؤلاء البداة المساكين الذين يجيئون الأمصار للشكوى والنَّصَفة فينقلبون من عند القضاة العدول بحق طمس ودم قد أهدر ، ومال أكلته المظالم ، فيمضى أبو العلاء بلسان حالهم يقول :

يقولون فى المصر العدول وإنما حقيقة ما قالوا العدول عن الحق

ولئن نقِم أبو العلاء على الأمراء والحكام ظلمهم واعتسافهم فان فى نفسه لمتسعا لحمد سواهم ممن تركوا ذكراً خالداً بعدهم ، جادت بهم الأيام على بخلها بأمثالهم وكانوا فى الحياة تتشوف الأنظار إلى رؤيتهم وتصبو القلوب إلى مودتهم وإكبارهم فقال فيهم :

أمراء حكام كأيام أتت شفعاً بها الجمعات والأعياد
كزياد الأموى او كزياد المـــرى إذ ولىّ فأين زياد
تثنى الخناصر فى الكرام عليهم وتمد نحو سناهم الأجياد

(٣) السياسة :

لا تظنّنّ أبا العلاء كان فى معزل عن السياسة والساسة ، فإن كل خطرة من خطرات الحكام وكل سانحة أو بارحة من سوانح رجال الدولة وبوارحهم كانت تقع فى علمه وتنزل فى ساحة حكمه . كانت له صلات وثيقة بأكبر سياسى فى عصره . ولعل هذا السائس قد حمى أبا العلاء ردحاً من الزمن ، فبات الشاعر فى كنفه آمناً مطمئنا من عوادى الزمن . كان صاحبه وزيراً خطيراً ورجل دولة مهيب الجانب ، كثير الأضداد فى السر ، عديد الأصحاب فى الجهر . وكان أديباً .

ساس الدولة من حدود مصر إلى أقاصى الشام فى الشمال . ولما هلك كان أبو العلاء فى معتزله فلم يُخلِ اللزوميات من ذكره فرثاه فيها وحده بأبيات فيّاضة باللوعة ، وتمنى لو مضى معه إلى الموت فما تخلف وحيداً بعده بلامعين

ذلك هو أبو القاسم المغربى . السياسى الندب الذى لزم والده العزيز صاحب مصر ثم تكدر ما بين والده أبى الحسن وبين هذا الحاكم فآل الأمر إلى قتله أبا الحسن فهرب ابنه أبو القاسم إلى الشام . وجعل يلزم الأمراء والملوك فى أمصار العرب ويحمل بعضهم على محاربة بعض من حدود حلب إلى ثغور مصر . واتصل بأمراء العراق وكان آخر أمره عند أبى نصر بن مروان بميافارقين[1] .

كان المغربى أديباً طُلَعة يستعين بشعره ونثره على الوصول إلى مآربه السياسية . ومن هذه الناحية الأدبية يجب أن يكون قد أعجب بأبى العلاء فسبر

(١) تاريخ ابن الأثير طبع ليدن ج ٩ ص ٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٢٢٥

أغوار عبقريته ، وسحرته تواليفه الخارقة . وكانت بينهما مراسلة تدل على وئام وصفاء ، وآصرة مودة . فرسالة المنيح وهى من أجل رسائل أبى العلاء بعث بها إلى هذا الوزير فقال فيها[1] (جعل الله لشانئه كوكب الرجم) فشبهه بالنجم وقد سرت نحوه الشياطين فهوت عليها الشهب الراجمة . ثم بسط أبو العلاء شوقه إليه وطول حنينه . وأن المعرة قد حظيت باقامته فيها فى الزمن الفائت . فنالها الشرف والنعمة ، والمجد والحمد . وأن صلة المعرة بأبى القاسم على البعد قائمة بتسديده وإرشاده فيقول أبو العلاء[2] (ونحن على شحط المعان ، واعتراض السهوب دوننا والرّعان لا نعدم من قِبَله تثقيف المائل ، والإرشاد إلى المنار المائل ، بكتاب حكمة يرفده ، وعهد بصيرة يعهده)

ثم يوضح هذه الصلة بأن أبا القاسم وإن كان مقيما فى مصر ، بعيداً عن المعرة ، فانه على الرغم من منتآه كان يرعى المعرة ويكلؤها بالعناية كأنه الشمس تنال بشعاعها كل الأقطار . ثم يفيض فى مزايا الوزير المغربى حتى يلمح إلى معاداة الناس له فيجعل له أسوة بالنبى صلى الله عليه وسلم لما نهضت قريش لحربه . وإنكار نبوته .

ويظهر فى آخر الرسالة الثانية التى سيّرها إلى المغربى أن صلته بوالده قد سبقت صلته به : فقد جاء فى أواخر رسالة الإغريض : (وأنا فى مكاتبة حضرة سيدنا الجليلة ، والميل عن حضرة سيدنا الأجل والده أعز الله سلطانه كسبأ بن يعرب لما ابتهل فى التقرب إلى خالق النور ، ومصرف الأمور ، نظر فلم ير أشرف من الشمس يداً ، فسجد لها تعبداً) وهو فى هذا السياق الذى يورده يعدّ أبا الحسن والد أبى القاسم بمنزلة المعبود ، ويجعل الوزير المغربى بمنزلة الشمس التى سجد لها سبأ بن يعرب .

وما كان لأبى العلاء وهو ذو الحفاظ على سمته ، الثابت فى وقاره أن يمالىء

---

(١) رسائله بيروت ص ٦

(٢) رسائله بيروت ص ٢١

أبا القاسم ووالده ، ولولا وشيجة ناشبة ، ورابطة صادقة بينه وبينهما لما كان ذلك ، فتظلل فى كنف حمايتهما حتى مات الأب فلما مات ابنه فجعته المصيبة، وحزّت فى كبده مدية ألم جسيم فراح ينتحب على أبى القاسم بأصدق العبرات ويرسل بعده الحنين والرنين بقوله : (١)

ليس يبقى الضرب الطويل على الأر ض ولا ذو العبالة الدرحاية
يا أبا القاسم الوزير ترحلت — وخلفتنى ثفال رحاية
وتركت الكتب الثمينة للناس — ومارحت عنهم بسحاية
ليتنى كنت قبل أن تشرب — الموت أصيلا شربته بضحاية
إن نحتك المنون قبلى فإنى منتحاها وإنها منتحايه
أم دفر تقول بعدك للذائق — لاطعم لى فأين فحايه
إن يخط الذئب اليسير حفيظاك — فكم من فضيلة محاية

إذن مات أبو القاسم الوزير فخلفه بعده ثفال الرحى فذكرنا بثفال الرحى التى تعرك تحت الحجر كما قال زهير بن أبى سلمى فى وصف الحرب : (فتعرككم عرك الرحى بثفالها) . بل أراد المعرى أن يشير إلى نفسه بأنه الثفال تحت رحى الوزير فاذا ذهبت الرحى فما للثفال من نفع . ويتمنى أبو العلا لو سبق الموت إليه فى الضحى قبل أن يصل إلى الوزير فى الأصيل ، ثم يعد الوزير الراحل باللحاق القريب .

فمنذا الذى يقول مثل هذا القول الفاجع ويذكر هذه الدمعة الدامية ولا يكون بينه وبين المبكى عليه صلة غير صلة الأدب والشعر والنثر ، إنها صلة الحماية السياسية التى انكشفت عن أبى العلاء بعد موت حاميه فبدأ ضاحياً لأعدائه فى معرض لنبالهم . وهم جم غفير فى الشام والعراق يتهمونه بالزندقة والبرهمية .

وهذا الرأى ذهاب نتجته لم ينتبه إليه مرجليوث والأستاذ الدكتور طه

---

(١) اللزوميات طبع بمباى سنه ١٣٠٢ هـ ص ٣٤٦ .

حسين والأديب الهندى الراجكوتى وهم أئمة من سبق فى معالجة هذا الموضوع من المعاصرين .

فرجليوث اقتصر فى مقدمته على رسائل أبى العلاء التى طبعها فى أكسفورد بأن قال إن رسائل أبى العلاء إلى الوزير المغربى فيها روح سياسية وأنكر عليه الأديب الراجكوتى رأيه هذا فنفى السياسة عن رسالتى المعرى إلى أبى القاسم وذهب إلى أنهما كلام فى الأدب فحسب . وتوسط بين الرأيين الدكتور طه حسين فقال [1] : (لم يكن لأبى العلاء بالسياسة العملية كبير اتصال) واستدل على هذه الصلة العملية الضعيفة التى كانت لأبى العلاء بالسياسة بأنه توسط شفيعا بين صالح بن مرداس وبين أهل المعرة واعتذر برسالة إلى أبى نصر ابن يوسف الفلاحى حين استدناه إلى الأمير عزيز الدولة [2] . فعد الدكتور طه حسين توسطه هذا ممارسة سياسية حقيقية واعتذاره للأمير بعداً عنها .

ولست أرى أبا العلاء فى معزل عن السياسة . فإن كل نأمة من نأمات عصره كانت تقع إليه فيسكبها فى خواطره الشعرية . فلزومياته أصدق شاهد على ذلك . ففيها ذكر أكثر الحوادث التى جرت فى زمانه وكان معول السياسة عليها من مشارف الشام إلى أرض مصر ومن حلب إلى العراق .

أفلم يذكر محموداً بن نصر بن صالح أمير حلب الذى يروى الرواة بغيه على أبى العلاء وطلبه إياه للقتل وإرساله لإحضاره جمعاً من عسكره فقال فيه :

يسلك محمود وأمثاله طريق خاقان وكندلج

وكان يندد بمحمود هذا كلما سنحت له خاطرة ظلمه فجرده من حمد الخلق وأنذر رأسه بالفناء بعد لبس التاج فقال ولعله يقصد الملك محموداً بن سبكتكين :

---

(١) تجديد ذكرى أبى العلاء . الطبعة الثانية ص ١٧٤ .

(٢) رسائل بيروت ص ٩٢

أسَرُّ إن كنت محموداً على خلق ولا أسر بانى المَلك محمود
ما يصنع الرأس بالتيجان يعقدها وإنما هو بعد الموت جلمود

وذكر قرواشاً والمهذب . وذكر صالحاً بن مرداس فى مواضع كثيرة وأشهرها نجوة المعرة من بطشه فقال :

نجى المعرة من براثن صالح رب يداوى كل داء معضل

فصلته السياسية بالوزير أبى القاسم وأبيه صلة لقى فى حماها حرزاً حريزاً من أظفار أعدائه ونبال حساده حتى تصدى للمدافعة عنه ميتاً لما هاجم ابن القارح ظُلمه فى رسالته إلى أبى العلاء وكان أديب حلب قد اكتوى بمياسم الوزير الظالم أيام كان فى مصر فسيَّر فى هجوه أشعاراً لاذعة ؛ فدافع عنه أبو العلاء بعد موته مظهراً أعظم الأسف على انتقاده فقال (١) : (كان ذلك الرجل سيداً ولمن ضعف من أهل الأدب مؤيداً ولمن قوى منهم وادّا ودونه للنوب محادّا) .

فكان بقوله : (ودونه للنوب مُحَادا) شارحاً مذهبى فى حمايته أبا العلاء طوال عهده بالوزارة والحكم .

فبقوله عنه إنه يحول دون وقوع النائبات على الأديب الذى يودّه وضح تلك الحماية التى ذهبت إلى استنتاجها وأحسب أبا العلا لم يقصد غير نفسه حينما ذكر ضعفاء الأدباء وأقوياءهم لان أبا العلاء كان ضعيف الحول فى الناس قوى الطول فى الأدب .

كان أبو العلاء أديب الطبع دمث الدفاع . لم يجبه ابن القارح بالرد العنيف ؛ وإنما ترفق به ؛ فقال له فى تلطف وأدب ؛ وقد مضى الوزير أبو القاسم إلى عالم الارواح : (إذا حجز دون الشخص تراب ، فقد تقضت الآراب . من ليم فى حياته استحق المعذرة فى مماته)

وكان ابن القارح محباً للأب مبغضاً لابنه لسوالف نعمة من الأول ونقمة من

---

(١) رسالة الغفران وقوف اليازجى . ط . هندية ص ١٨٥

الثانى فكان من قوله عنهما فى رسالته لأبى العلاء : [1] (ثم سافرت إلى مصر ولقيت أبا الحسن المغربى ، فألزمنى أن لزمته لزوم الظل وكنت منه مكان المثل فى كثرة الإنصاف والحنو فقال لى سراً : أنا أخاف همة أبى القاسم أن تنزو به إلى أن يوردنا ورداً لاصدر عنه . . . فأستأذنته بالحج وعدت من الحج إلى مصر وقد قتله الحاكم .

ثم جرت وحشة بين ابن القارح وأبى القاسم فلعنه فى وجهه فراح ابن القارح يقول عنه لأبى العلاء بعد موته : (وكان أبو القاسم ملولا ، لايمل أن يَمَلّ . ويحقد حِقدَ من لاتلين كبده . كأنه من كبره قد ركب الفلك . فلما رأيته سادرا جارياً فى قلة إنصافى على غلوائه محوت ذكره عن صفحة فؤادى وبغضى له يشهد الله حياً وميتاً ، أوجبه أخذه محاريب الكعبة الذهب والفضة وضربها نقوداً ودراهم وسماها الكعبية . وأنهَبَ العَربَ الرَّملةَ ، وضرب بغداد وكم دم سفك وحريم انتهك وحرة أرمل ، وصبى أيتم) .

فأجمل ابن القارح وصف الوزير الخطير وأبان باع سطوته ، وضخامة خطبه والسبب الذى من أجله كان يهجوه .

ولو لم يكن ابن القارح عارفاً حق المعرفة بالصلة السياسية بين أبى العلاء وأبى القاسم المغربى الوزير لما ذكره له فى رسالته إليه . وسأشرح موقف ابن القارح من أبى العلاء فى مكانه الآتى من هذا الكتاب .

خلاصة ماينجلى أن أبا القاسم كان وزيراً لصاحب مصر ومصر يومئذ فاطمية يتناول حكمها الشام حرباً وصلحاً ، وطوعاً وغصباً فكان يعتز بحمايته أبو العلاء . فلما قتل أبوه وهرب هو إلى الشام ضرب فى مناكب سياستها ولزم بعض أمرائها بالمشورة وقام عن البعض الآخر بالقيادة فحمى أبا العلاء فى ديار الشام حتى هلك . فراع أبا العلاء هلكه فالتاع عليه وتمنى فى الموت اللحاق به

* * *

كان الساسة زمن أبى العلاء كما هم عليه فى كل زمان ومكان لباسهم

---

(١) ضمن رسائل البلغاء وقوف الاستاذ كرد على

المصانعة فى أمور كثيرة لئلا يضرسوا بالأنياب ويوطؤوا بالمناسم . وكلامهم ألفاظ صيغت تعابيرها من الدهاء . ماخلا منهم فى الدهر عصر . ولا برئت منهم مصر . وكيف لا تكون هذه صفة من لابس الملوك وخالط الأمراء . وقد كانت حالة البلاد العربية فى آونة أبى العلاء تقتضى هذا اللبوس ، وتستلزم تلك الصفة .

ففى كل صقع أمير يعدو على أمير ، وفى كل ناحية مَمَلَّك ينكر طاعة مليك فيدعى الإمرة ويضرب الجزية ويسجن الناس ويصادر المال . ولا يلبث أن يقر به قرار على حال حتى يثب عليه مصاول أو منافس من قريب أو من بعيد ومن بطانته أو من أعاديه .

شهد أبو العلاء هذا القبيل من الناس وعرفهم من قريب أو من بعيد ؛ وتصدى له بعضهم ، وصد هو عن بعض . وكتب كتباً لنفر منهم ، ورغب عن عشرة آخرين فاعتذر . وصفهم جميعاً بأبيات من اللزوميات خص بها الساسة بالنقد والتقريع فهم أناس بلا عقول كل همهم أن يتولوا الحكم على الناس ليقال إنهم ساسة :

يسوسون الأمور بغير عقل ... فينفذ حكمهم ويقال ساسة
فأفٍّ من الحياة وأف منهم ... ومن زمن رياسته خساسة

وراع أبا العلاء أن يرى أصقاع العرب لا سلطان للملك فيها . فالساسة شياطين لا يحفلون بجموع الشعب . باتوا سكارى وقد امتلأت بطونهم بالطعام وكان أبو العلاء يرى أن اتباع العقل هو قوام السياسة لقيام الرئاسة فلا رئاسة لأرعن . وإنما هى لأهل الحصافة فيقول :

وإذا الرئاسة لم تعن بسياسة ... عقلية خطى الصواب السائس

الفصل الثانى

الطبقـــات

(١) الفقراء والأغنياء

كان من البديهى أن يعنى أبو العلاء بالفقر والغنى . لأن هذين العاملين خلقا مع الإنسان . وأحسب سيبقيان مابقى الملوان . فأبو العلاء وقد تناول بنقده المجتمع فى مظاهره وبواطنه . كان جديراً أن ينظر إلى الغنى والفقر نظرة متمكن أريب ونقادة عجيب .

ترى لو كان ذا ثروة ومال ، وخدم وحشم ، وإمارة وحكم ، هل كان يتبسط فى نقد ذوى المال والإثراء . إن استقصاء سيرته ، والتنقيب فى تاريخ حياته يدلان على أنه لم يكن يملك فى سنته كلها أكثر من ثلاثين ديناراً كانت تجرى عليه من عقار موقوف . وقد ذكر هذا فى مكاتبته لداعى الدعاة الفاطمى فقال : (١)

(ولى فى السنة نيف وعشرون ديناراً ، فإذا أخذ خادمى بعض ما يجب بقى مالا يعجب فاقتصرت على فول وبلسن ، ومالا يعذب بالألسن)

فأبو العلاء إذن لم يكن غنياً ولا ذا ثروة ، ولا متوسط المال بين الناس وإنما كان فقيرا . قال لتلاميذه الذين قصدوه من أقاصى البلاد ، وكأنه يعتذر إليهم من البذل والإحسان ؛ (لامال تيسر لى) واعتذر إليهم فى الأدب الذى طلبوه عنده وهو محجور عنه مفلس ، حجر نفسه باعتزاله ، ولم يكن ذا يسر فكان من المفاليس :

اطلبتمُ أدباً لدىَّ ولم أزل ... منه أعانى الجحر والتفليسا

---

(١) رسائله للداعى . ط . السلفية ص ١٨

(ما كنت ذا يسر) فاجمعه ولا ذا صحة فأحالف التغليسا

وليس مستغرباً فقره ؛ فإنه لم يرث من أبيه وجده مالا . فقد كانا قاضيين موصوفين بالوقار والاستقامة وحسن السمعة والعدالة . ومن وصف بذلك من القضاة كان بعيداً عن احتجان المال وتناول الرشى .

لم يحجم المعرى الإخبار عن فقره فقد بين ثروته السنوية برسالته إلى الداعى والتزامه طعاماً لا يستعذب بسبب فقره وضيق ذات يده ؛ بعد أن يأخذ خادمه قسطه من هذا المال ليقوم بخدمته . وهو رجل قد اضطرته الحياة ، وحكمت عليه الأقدار أن يستعين بغيره من الخُدّام والكُتّاب . والظاهر من أمره أنه كان يدفع مالا لكاتبه ، غير خادمه ، ودليلى أنه حَمِد كاتباً أملى عليه كتباً فلم يتناول منه أجراً فقال[1] :

(فأمليت أشياء تولى نسخها الشيخ أبو الحسن على بن عبدالله بن أبى هاشم أحسن الله معونته فألزمتى بذلك حقوقاً جمة وأيادى بيضاً لأنه أفنى فىَّ زَمَنهُ ولم يأخذ عما صَنَعَ ثمنه والله يحسن له الجزاء ، ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء)

فكان دُعاء المعرى لأبى الحسن هذا دعاءَ من انبسطت أساريره لمن رفع عن كاهله العبءَ الثقيل . وهذا دليل ناطق على ارتياح أبى العلاء لمعروف كاتبه . وكان ينبغى أن يُبْهِظَه الأجْرُ لو أنه أدى له على الكتابة مالا .

فاذا عرفنا من سيرة أبى العلاء جانباً من فقره ، أدركْنا البعضَ الآخر من كلامه على الغنىّ والفقير ، وله فيهما فى اللزوميات شعر كثير .

لا يُستطاع تحديد رأيه فى المال من الوجهة الاجتماعية العَمَلِيّة لأنه لم يكن من بُناة المجتمع فى سبيل إصلاحه ، وإنما كان من هادميه بسبب فساده. ولذا كان من الصعب الوصول إلى إيجاد نظرية مالية لأبى العلاء كما تقتضى أساليب علم الاقتصاد على مصطلح هذا العصر .

فأبو العلاء يقول بالفقر لأنه شعار الزهد ودثار القناعة وصورة العزوف عن

---

(١) ياقوت فى معجم الأدباء ، ط البابى بمصر جـ ٣ ص ١٤٥

الدنيا . ويذم المال والمتمولين ، لأن المال والثروة حبالة الشيطان ووسيلة الضلال فى الوجود . فلا المال يبقى ولا ذووه .

نقد كثرة المال لأنه يراها نَصَبا للانسان وتعباً . وهذا رأى شاركه فيه الكثير فقال :

وكثرة المال شغلٌ زاد فى نصبٍ وقِلَّة منه معدولٌ بها التَلَفُ

وحيناً يجد هذه الكثرة مبطرة للمرء فهى مسببة له العثار إذا سار ، فقال:

وكثرة المال ساقت للفتى أشراً كالذيل عَثَرَ عندَ المشى ضافيه .

والمال فى نظره آفة اجتماعية تقلب الحقائق . فكم أسكتَ ألسنة عن التكلم بالحق ، وأنطق أفواهاً بالباطل ، وجمعَ الناس شيعاً وأحزاباً :

والمال يسكت عن حق وينطق فى بطلٍ وتجمع إكراماً له الشّيَع

وإذا كان من عادته الرجوع بآرائه إلى الاعتدال — كما أشرت إلى هذه المزية فى أسلوب نقده — فقد عاد راضياً لك بالمال على شرط أن تعين به طالب معروفك لأن المال ظل زائل ، فهو شمس العصر على القصر فقال :

مولتَ والمال مثل الفيءِ منتقل فليغدُ منك على عافيك تمويلُ

ولم يسلم أبو العلاء من معاصريه حتى فى ثروته وماله فاتهمه الحساد والعداة بالمال، وزعموا أن له خولا وحشماً ، وسبب ذلك أن قصده المعتفون فلم يجدوا عنده شيئاً فقال :

واتهامى بالمال كلف أن يطلبَ منى مايقتضى التمويل

ويقول الغواة خوّلك الله — كذبتمْ لغيرىَ التخويل

ولعله كان بلغه ما كتبه عنه معاصره الرحالة الفارسى ناصر خسرو بعد أن فصل عن المعرة وبلغ بلاده من أنه يحكم المعرة وله مالٌ وخول ومن حوله عُمّال وخدم فأنكر ذلك مدافعاً عن نفسه وهو أبداً فى أكثر نقداته يسوق المذهبَ إلى الزهد حتى إذا جاءت نوبة المال ، قال :

بلا مالٍ عن الدنيا رحيلى وصعلوكاً خرجتُ بغير مالِ

ولا يفوته — كدأبه — أن يرمق بيت صاحبه أبي الطيّب الذى يقول فيه :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعَلَ الفقرُ

فيجرى على غراره ويقول :

إذا زادكَ المالُ افتقاراً وحاجة إلى جامعيه فالثراءُ هو الفقر

* * *

أما نقده للغنى والأغنياء ؟ فكان مقرونا بالإشفاق على الفقر والفقراء وهو كعهده فى أكثر آرائه ونقداته يؤول به الطريق إلى خطته فى الزهد وطريقته فى التقشف والإعراض عن الدنيا . ففكرة الفقر عنده ممزوجة بتحبيذ الفقر، مشمولة برضائه عنه . لأن الفقر محمود العقبى إذا كان المرء يوهب المالَ فيبذره فلا سرَفَ مع الفقر، وإنما السرف قرين الغنى :

والفقر أحمد من مالٍ تبذره إن افتقارك مامون به السّرف

والفقر راحة والغنى قلق ، وغداً فى عالم الفناء يستوى الفقراء والأغنياء:

والفقر أروح فى الحياة من الغنى والموت يجعل خائلا كمخوّل

وينظر إلى أمر الغنى والفقير بين الناس فيلمز مادرج البشر عليه من تنكر للفقير وعمالأة للغنى . فهم فى قديم الزمن وحديثه يخطئون الفقير ولو كان مصيباً، ويستصوبون فعل الغنى ولو كان خاطئاً . وقد شاع نقد هذه الخصلة على أقلام الأدباء قبل أبى العلاء . فكان من نقد ابن المقفع لمقابح المجتمع تملق القوم للغنىّ الجاهل وازدراؤهم للفقير ولو كان عالماً فقال[1] :

(وليس من خلّة هى للغنىّ مدح إلا هى للفقير عيب)

فأجمل أبو العلاء هذه النقدات بقوله :

كنتَ الفقيرَ فخطئت لك صُيّب ورزقت إثراء فقيل مقرطِسُ

ويرى حكيم المعرة أن الأصل فى الإنسان الفقرُ والغنى صفة عارضة عليه :

---

(١) الأدب الصغير لابن المقفع بتحقيق أحمد زكى باشا طبعة العروة الوثقى سنة ١٩١١ ص ٧١

وما فى الأرض من أحد غنىّ ولكن كلُّنا فقراءُ عالهْ

ويمضى فى خيال دينىّ عن البعث والنشور . فالفقر موت ومن كان فقيراً يرجى له غنى كما يرجى للأموات إنشار فى يوم القيامة :

والفقر موت غير أن حليفه يرجى له بتمول إنشار

وإنه فى كل حين، فى رأيه ونقده، يلتفت إلى نفسه بعد أن يفرغ من غيره. ففى نوبة الفقر يكون نصيبه أن يقول عن نفسه إنّ الفقير إذا جاءه مسترفداً بذل ما أمكنه بذلُه من المال ، فقال :

إذا ورد الفقير على احتياجى أغثت لهيفه بالمُستدف

ولكم وجدته يؤثر الهروب بآرائه ونقداته من الحياة الاجتماعية إلى الحياة الدينية ، فإذا تكلم على اغتناء أو افتقار ، قال بالأقدار فأدلى دلو شعره فى مزاعم تلك الفئة القدرية التى تقول بالرزق المقسوم ، والحظ المحتوم . وقدمر بخاطرى وأنا ألحظ منه هذا ، حوادث وأشعار فى كتاب المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ يوصى أصحابها وقائلوها بالمكوث فى الدار ، انتظاراً لرزق الاقدار . وينسون أقوال العرب المأثورة وفيها من سعى رعى ، ومن لزم المنام رأى الاحلام . ويفوتهم قوله تعالى (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) . فيسير أبو العلاء فى ركبهم ويكون وكلا فيقول :

يسعى الفتى لابتغاء الرزق مجتهداً بالسيف والرمح فوق الطرف والجمل

ولو أقام لوافاه الذى سمحت به المقادير من نقص ومن كمل

ثم أكد هذا المعنى وجلاه ، وبين خطر الحظ بقوله :

كم أحرز المال المقيمُ بجده وسعى الحريص فعاد غير محوّل

وقد دلت التجارب أن هذا الرأى فائل . فكم ورط هذا التواكل فى طلب الرزق أناساً فأوردهم موارد الفاقات . وكم آخرين لم يأبهوا له مضوا قدماً فى سبل المكاسب فعادوا بالربح المحمود والخير العميم . وإن لنا فى خلق الله من طير ووحش تغدو غماصاً وتروح بطاناً لموعظة . وهى إن جمدت فى

مكانها ؛ لم يوافها القدر بما تتبلغ به ، فما بالك بالإنسان العاقل الذى يستطيع ببصيرته وحصافته أن يكسب الرزق من الوجوه الكثيرة . ولا مجال للتجهم لهذا الرأى ان كنا نشاهد قبيل هذه الحرب المعاصرة عطلا من الأعمال فى عديد من الرجال . فان ذلك مرده الناس ، ونيابة الآلات والمعدات عن صناعة الأيدى وأعمال الإنسان .

ذلك جملة من نظرة أبى العلاء إلى الفقر والغنى ، وكنت أمنى النفس فى أن أقع لابى العلاء على رأى فى تنظيم الثروة على غرار آراء هؤلاء الاقتصاديين الذين بسطوا سلطان نظرياتهم على الاموال العامة والخاصة فى أيامنا ، فلم أجد أبا العلاء ذا رأى اقتصادى فى المال والغنى والفقر ؛ وقد غلبه الزهد على أمره فى ذلك فسد عليه بعض وجوه الرأى فى الفلسفة العملية النافعة .

(٢) الاشتراكية والديموقراطية

سادت فى عصرنا مذاهب اجتماعية استهدف آراءها أحرار الفكر الذين انجبتهم الامم العريقة منذ عصر الثورة الفرنسية حتى أيامنا هذه . من هذه الآراء النزعة الاشتراكية والدعوة الديموقراطية . وكما أن لكل النزعات الإنسانية من قديمة وحديثة حالات وأطوار مغالاة واسترسال ، فكذلك أصاب هذه المنازع الاجتماعية غلو وتطرف . فكانت الشيوعية وكانت الفاشيستية والديكتاتورية .

كان (كارل ماركس) منذ سنه ١٨٤٨ ميلادية رسول هذه الآراء وصاحب الجذوة الاولى التى عنها قبس القابسون فى مغارب الارض اراءه الشخصية ومالبثت هذه الآراء دائرة فى الرؤوس حتى صارت أعمالا جساما وثورات مندلعات بالحديد والنار فإذا روسية تنهد قيصريتها سنة ١٩١٨ وتقوم على انقاضها الشيوعية اللينينية ، وتكاد تجرف من ناحية الغرب أوروبا كلها ، فتقوم فى وجهها مذاهب أكثر منها اعتدالا وأقل تطرفا فإذا ألمانيا اشتراكية وفى ايتاليا فاشستية وفى ايطاليا فاشيستية وفى فرانسة وانكلترة ديموقراطية بحتة

وأقرأ أبا العلاء فى هذا العصر فأعجب إذ أراه عارفاً بفكرة الشيوع . قائلا بالاشتراك وحاضاً على الديموقراطية . وهى أقوال لاغرابة أن تظهر منه . فهو لم يخترعها اختراعاً وإنما عرفها من الثقافة اليونانية التى تناهت إلى عصره مترجمة . ووعاها فى تعاليم الإسلام الحنيف بما يتفق والحق بالتساوى

عرف اليونان هذه النزعات فى كتب فلاسفتهم . قال بها أفلاطون وأرسطو وعرفها سقراط . وطبقها فى القول والعمل الفيلسوف ديوجين وكان يبحث فى وجه النهار وبيده قنديل مضاء ؛ عن رجل يعتنق مثله تلك المثل الفلسفية .

فنظام المواريث ، وحق الملكية ، وتوزيع الثروات ، واقتناء العقار ، واكتناز المال ، كل ذلك ينصهر فى بوتقة الاشتراكية ويذوب ثم يوزع على الناس بالتساوى والعدل .

ألم أبو العلاء بطرف من هذه الآراء ولم يجسر على ترداده والتعمق فيه ولا استطاع توضيحه . فهو لما ذكر الفقر والغنى أطال الأقوال ، وأبعد فى المجال . ولكن حين حاور فكرة الاشتراكية اقتصر فيها على القول الزهيد فهل خطر فى باله مذهب الاشتراكية المعاصرة ونظر بلحظ الغيب إلى مصطلح أيامنا فيه فتمنى لو كان له من الدنيا قليل من القليل ليشرك فيه الناس على السواء فقال :

لو كان لى أو لغيرى قدر أنملة من البسيطة خلت الأمر مشتركا

وإنى لارى فقر أبى العلاء وإدقاع المعرة هو السبب الذى أطلع بين أشعاره هذا البيت السالف . ونحن إذ ننظر إلى الاشتراكية المعاصرة نراها كذلك وليدة الفقر والحاجة ، وسليلة العداء للاغنياء ، والاضطغان للموسرين

ونقد أبو العلاء الإباحية فى أشد مظاهرها الاجتماعية التى عرفت بعده بما يقرب من ألف عام فى أوربة يوم طغى على القوم فى صقع من أصقاع تلك البلاد رأى اجتماعى جارف يقول بتوزيع الانساب وإضاعتها بين الناس وكان يرمى هذا الرأى إلى فك أواصر الاسرة وإبطال (العائلة) تصير فيه النساء مشاعات وأولادهن يصبحون مشاعين .

فيا لرحمة أبي العلاء حين حذر من هذه المحنة الاجتماعية بنقده اللاذع ويقظته الواعية الشاملة ؛ إذ رأى شر ما على الإنسان أن تصبح المرأة كالأرض لكل زارع :

شر النساء مشاعات عدون سدى كالارض يحملن أولاداً مشاعينا

وجرفته فكرته الاشتراكية إلى أن يحيد عن النزعة العربية التى كانت معروفة فى عهده ، والتى مضى على غرارها من قبله الشعراء كالمتنبى وأبى تمام وأبى فراس الحمدانى فكانوا عرباً فى الدعوة والفعال يقولون بالقومية على نحو ما يقول دعاتها فى زمننا من أكثر الاجناس . فمضى المعرى على غرار الرسول صلى الله عليه وسلم فى تعميم الإسلام واطراح العصبية الجاهلية فى عقر دارها من الجزيرة . فقال مساوياً بنى هاشم بغيرهم من الخلق وعلياً بخادمه قنبر :

لا يفخرن الهاشمى — على امرىء من آل بربر
فالحق يحلف ما علىّ — عنده إلا كقنبر

فكان إنسانيا ولم يكن قوميا . وكانت تدعوه إنسانيته الاجتماعية وقد جاء الشتاء إلى أن يفكر — تحت رياحه العاصفة ومياهه الساكبة — بالفقير العريان والامير الرافل بالثياب المبطنة فقال :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته فقير معرىّ أو أمير مدوّج

وبحسب هذا البيت وأمثاله أن يقرأه القارىء المنصف والإنسان الحكيم فيحس فى نفسه داعياً يدعوه إلى التفكير فى مناحى الرأى بتوزيع الثروة ، ونظام الملكية ، وحياة الطبقات .

أما الديموقراطية وما تقتضيه من عدل فى حكومة الحاكم بين المتخاصمين ، ومن حماية للملكية ، ورعاية للحقوق الشخصية ، وإباحة لحرية الرأى ، وقدسية العبادة ، فلا يفقد المنقر أن يجد لأبى العلاء فى كل ذلك نظرات اجتماعية ونقدات صائبة تتعلق بنظام الحكم والحرية والانطلاق من قيود الامراء . فكان ينكر حكم الملوك لأنه لا يرى الملك إلا لله وحده فيقول :

تسمت رجال بالملوك سفاهة ولا ملك إلا للذى خلق الملكا

وكان يدعو إلى فك القيود . وما فكها سوى التحرر من جور الملوك وعسف الامراء . فكأنه كان يدعو إلى ثورة ديموقراطية كأروع ما تكون الثورات الديموقراطية فيندد بأفعال الملوك بعصره فى كل أرض أو ضربهم للناس السكك ويعنى بذلك أفعالهم الذميمة ، واضطراب المال فى أيدى الناس على عهود أولئك الأمراء فيقول :

هل آن للقيد أن تفكه إن قبيح الفعال حكة
بكل أرض أمير سوء يضرب للناس شر سكة

ومدح العدل فبين نعماه على صاحبه وعلى الناس ، وذم الظلم وشرح نقمته وكيف يشقى به المظلوم ، ثم انقلب كما عهدته إلى فكرة الزهد فانكفأ على نفسه راضياً بظلم الملوك لانه كان يشاهد الناس أظلم لانفسهم ممن يظلمهم وكأنه كان يذكر الآية الكريمة (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فيقول :

أعاذل إن ظلمتنا الملوك فنحن على ضعفنا أظلم

وكان يتوقع بعد اطلاعه على الاهوال فى تاريخ العرب وفجائع الإسلام وطغيان قوم على قوم ، وتفرق السلطة أيدى سبأ ، أن يستبد الملوك بالحكم وأن تستبد بهم النساء :

تسامت قريش إلى ما علمت — واستأثر الترك والديلم
وهل ينكر العقل أن تستبد — بالملك غانية غيلم

وقد دار فكرى حول قوله (تسامت قريش إلى ما علمت) فوجدتها غمزة انتقاد منه لقريش فى تسنمها زمام العرب أواخر الجاهلية وأيام الرسول وبعده فسامح الله أبا العلاء . فمن كان أجدر من قريش بالتسامى والملك . فقد قرن تساميها بظلم الترك واستئثار الديلم بالحكم . وجار فى حكمه وكأنه لم يبلغه وهو

فى عقر معزله بالمعرة أن قريشاً التى تسامت ، قد ملكت من الشرق بلاد فارس ومن الغرب ديار الروم . وكان عليه أن يبكى مجدها ويندب فى شعره أفول شمسها الذى صار به إلى عصره المظلم . وأحسبه حين أكون عذيره أنه لم يقصد سوى الفتنة التى تسامت إليها قريش فى حروب الإسلام بعد مقتل عثمان .

وقد ينزو به الفكر نزوات إلى القول والاستبداد ، وما نسميه بمصطلح عصرنا (الديكتاتورية) وقد عرف هذا الضرب من الحكم فى تاريخهم عهود الإسلام فاهتز به سيف زياد وهو يقول :

(لأتركن أحدكم يقول أنج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لى قناتكم) وأخفق به سوط الحجاج وهو يصيح على منبر الكوفة : (لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل) .

فإذا دعا المعرى إلى وضع السيف فى موضع الندى فهى بادرة منه قد ندت فى حالة من حالات عنفه . فقد كان رقيق القلب شفاف العطف فأشفق على البرغوث فسرحه على كفه . وكان إلى ذلك تنزعه نوازع شدة وجور كدعوته إلى سفك الدماء وجعل كلام السيف مقام كلام اللسان :

كلم بسيفك قوماً إن دعوتهم من الكلوم فما يصغون للكلم

وقريحته وبصيرته تمتدان به أبداً إلى أثيره أبى الطيب فكأنه قال هذا البيت وهو يسمع فى ضمير قلبه قول أبى المحسد حين قفل من سفره خائباً فكلمته أقلامه عن كلال أسنتها ومضاء أسنة السلاح فراح متعظاً بعد خيبته يقول :

حتى قفلت وأقلامى قوائل لى المجد للسيف ليس المجد للقلم
فاكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فإنما نحن للأسياف كالخدم

الفصل الثالث

بناة المجتمع وهادموه

(١) المشائخ والقسوس

لاجرم أن المعرى معنى بالشيوخ وبالقسوس ، بالأحبار وبالرهبان . فقد ناجزهم حرب النقد ، فناصبوه العداوة واتقوه بالتهم ، وعنف عليهم بالتلوام فتألبوا عليه بالتجريح . كان يتناول بوصفه صورهم وبنقده أخلاقهم ويصور فيهم جماعة اللبوس الكاذب والقول الخالب ، ومستبطنة النفاق ، ومتخذى الدين اداة لجر المغانم ودفع المغارم . إنه لم تخف عليه مناسكهم الباطلة . وكان عصره يعج بهم ، فمنهم خلق كثير فى مجالس الملوك وبطانة الأمراء ، وكان منهم مئات من أهل العقد والحل ، والادب والعلم . قد ابتلى بهم الشام على عهده والعراق ، وأصاب فيهم أبو العلاء من كاد له عند حاكم ، ومن دس عليه عند أمير ، ومن جاد له فى مجلس أو ناظره فى رسالة ومن أمر بسحبه من رجله وطرحه خارج المسجد أو من تقول عليه الاقاويل وافترى عليه بالاباطيل ومن اتهمه بالزندقة والمروق . وكيف لايقع هؤلاء فى شباك نقده وقد رماها لاقتناص مثالبهم فثاروا فى حبائلها المكينة يبغون تخلصاً واجمعوا أمرهم على حربه ، وأجمع أمره على فضحهم . فانقسموا عليه فئتين واحدة تقربت منه بالتدايس والمالأة وأبطنت الكيد له والمكر به ، وثانية كشرت له عن أنياب الذئاب فودت لو فرت لحمه وعرقت عظمه .

فكان أن كتب إليه ابن القارح على بن منصور ، وكان شيخاً من أدباء حلب فى وقته رسالة للتقرب إليه والتحكك به عمد فى أثنائها إلى ذم أناس يحبهم أبو العلاء ويؤثرهم بذكر المحامد ، وينسب إليهم الفضائل .

كان يعلم من حب أبي العلاء لأحمد بن الحسين المتنبي أنه ألفَ فيه رسالة في شرح شعره وذكره في كتبه معجباً بمعانيه مكبراً لعلو نفسه وذهابه بطبعه وسمو روحه فقال عنه ابن القارح وكأنه يكيد لأبي العلاء فيه :

(كذب والله لقد كان يتحرش بالمكارم ويتحكك بها) .

ثم أراد أن يجبر ماصدع فأردف بقوله :

(وهذا غير قادح في حلاوة شعره ورونق ديباجته) .

وحين ذكر أهل الإلحاد والزندقة حشر منهم طائفة بعضها بعد بعض ، فعرض على أبي العلاء معارض أوشابها ، ومفاسد عقائدها واحدة بعد واحدة فهذا بشار يقتله المهدىّ على الزندقة ، وصالح بن عبد القدوس يأخذ السيّاف منه غرة فيضربه بالسيف . وذاك القصار الأعور يظهر أيام المهدى فى بخارى وراء النهر فيقتل ، وهنالك الصناديقى فى اليمن والوليدبن يزيد فى الشام والجنابى بمكة والحلاج ظهر بنيسابور وقتل ببغداد [1] . ثم ابن أبي الغدافر والراوندى قتلا وصلبا . كما سيجىء الكلام عليه فى وجه من التفصيل بفصل مخصوص من هذا الكتاب .

فاذا جاء ذكر الصلاة مد لأبي العلاء إبرة فى خلال رسالته إليه ، فشكه بها حين ذكر أن أبا تمام كان لايصلى وكيف عاينه الحسن بن رجاء الكاتب ونقم عليه لسوء اعتذاره فى ترك الصلاة .

وختم على بن منصور أخبار الزنادقة والضالين بقصة « فاذوه » الكبير الرأس ، الفيلىّ الأذنين وكان مجاهراً بإلحاده فسقط على رأسه مهراس من يد امرأة كانت تناوله لجارتها فهشم هامته حتى اختلط دماغه بعظمه .

إنى لأجد كل ذلك من ابن القارح تهويلا على أبي العلاء وتنديداً فى ملبس ناعم ، وكشرة باسم فيها الكيد والعطب .

وحين أفرغ الشيخ ابن القارح جعبة من هذه السهام الخفية رمى أبا العلاء

---

(١) سنة ٣٠٩

بسهم آخر مريش بالدهاء ، فسكب سجلا من ذمه على رأس الوزير أبي القاسم المغربي . فقدح أفعاله وذمّ أقواله ، وحشره مع عباد الله الظالمين من هُدام البلاد والمساجد .

فعمد أبو العلاء إلى هذه السهام بالتقية وأجاب ابن القارح إجابة متأدب رزين . فدافع عن المتنبي والوزير وساق طوائف من أهل الإلحاد عَنَّف عليهم بأكثر مما عنّف الشيخ الحلبي . وقد شفى أبو العلاء نفسه منه في الإجابة برسالة الغفران فخاطبه بالشيخ في كثير من المواقع وتناوله بالسخرية وأولجه في أبواب التهكم حتى جعله تندُّر القارئين وأفكوهة المازحين وسخرية العابثين من أهل الجنة والنار . فأماته وحشره ، وبعثه ونشره .

ثم ما كاد أبو العلاء ينسى بعد طويل السنين رسالة بن القارح حتى جاءته رسالة ثانية من أبي نصر داعي الدعاة الفاطمي . هي أمر وأدهى ، وأقوى مراساً وأقرب هَجْمة .

هي ضربة مستورة سددها إلى صدر أبي العلاء شيخ من ذوى القدرة ، وأرباب الإمرة ، يستطيع البطش ويقوى على المضرة . وأحسب أبا العلاء قد استعاذ منه بالله . لقد دفعه عن نفسه بالأيدى اللطاف ، وبكلام من يحتال على سبع قد أقدم على افتراسه ، وأسلوب من يجامل فارسا وقف له في بعض الطريق يريد استلابه .

فكان أن سأله القاضي بالتصريح أن يفضي إليه بأنباء الأمور الصحائح وقال وهو يعني المعري : [1] : (شددت إليه راحلة العليل في دينه وعقله إلى الصحيح الذي ينبيء أنباء الأمور الصحائح كما أهدى إلى ما يوقظ من سنة الغفلة مقبول النصائح ، وأنا أول ملب لدعوته معترف بحيرته ، مغترف من بحر إرشاده وهدايته . وهو حقيق بأن يكون عند آخر وعده بالتبيين والإيضاح ، وأن يتوقد لكشف حنادس فكرى توقد المصباح ، وأن لا يوطئني العشواء

(١) رسائل الداعي ، السلفية ص ٦

فيسلك بى فى المجاهل ولا يعتمد فى إيراد مايورده أن يُلبس الحق بالباطل) .

فكان سائلا متوداً وعدواً منداً . فأجابه أبو العلاء بجواب دافعه فيه عن نفسه ، وتحوط معه فى الكلام ، وشغله بالثناء على فِعاله وأقواله ، فلم يجده الداعى جواباً شافياً . ولم تتم بين أبى العلاء وبين الداعى المراسلة ولا انتهت المساجلة إذ أتت أبا العلاء المنيّة ؛ دونها البقية .

ولو بلغتنا أخباره كلها ، وجماع أطوار حياته لوجدنا أشياخا كثيرين قد تربصوا بأبى العلاء الدوائر ، وسيأتى خبر من عرفنا منهم عند الكلام على محاربة المجتمع لأبى العلاء فى حياته وبعد مماته .

فليس إذن بمستغرب أن تجد أبا العلاء قد فَنَّدَ المشائخ وثلب القسوس وكشف عن مقابح الأحبار . وكان من عجيب أمره أن عقد معانى الكلام عندما نقد أناساً من الشيوخ يخشى بأسهم فادّرأ من بطشهم بأبيات كأنها الأحاجى المُعماة والألغاز المخبّئات .

لقد نقد زميتا جعل الدين جُنة له وكِنا . ويبدو من قول المعرى أن هذا الزمّيت كان كثير السبحات ، نهم الأكلات . نعته أبو العلاء بالتوحُّد فى الكفر والتستر بالإمامية وأنه مع كونه متشيعا من غلاة الشيعة كان شامتاً بمقتل الحسين بن على لما قتله الشِّمر بن ذى الجوشن عطشاً ، فقال فيه أبو العلاء :

مالى رأيتك لاتُلم بمسجد ... حتى كأنك فى البلاغ السابع
سبح بواحدة ففيها بلغة ... للمعتفين وكل بخمس أصابع
يا أولا فى الكفر لم يك ثانياً ... طال استتارك بالإمام الرابع
والشمر عندك فى الحسين موفق ... لما حماه من الفرات النابع

وتحيرت فى أمر البيت الأول ، وجددت فى حل رمزه حتى بلغت المعنى . فإن المعرى يخاطب هذا الرجل الذى لايدخل مسجداً مستنكراً إعراضه عن المساجد . فهو إذن لايسجد أبداً ولا يُلِمّ بمكان سجود . وهو إذن كإبليس أبى أن يكون من الساجدين . أما قوله (حتى كأنك فى البلاغ السابع) فهو

أحجية البيت (فالبلاغ السابع) هو : (السورة السابعة) من القرآن الكريم فقد قال صاحب لسان العرب : « البلاغ التنزيل وما بلغ من القرآن » وقد عددت السور فوجدت السابعة سورة (الأعراف) وفيها قوله تعالى :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين » .

قلت ما أبدع رموز أبي العلاء وقد سكب عليها من فنه سحراً خفياً ، ثم طفقت أسائل النفس من يكون هذا المنقود المثلوب . ومن من الرجال قد استتر بالإمامية ونال بها منالة الدنيا فبغى وبطش ، أساء للناس واكتسب بالدين . وقلت هل قصد ابن أبي أحمد الموسوي الشريف المرتضى نقيب الطالبيين ورئيس الشيعة ببغداد ، الذى أمر بسحبه من رجله ، ومن سواه أجدر بهذا الوصف العلائى . وقد قوى الدليل عندى ستر أبي العلاء لهذا النقد اللاذع بأستار من القول ، وألغاز من المعنى وما فعل ذلك إلا خشيةمن فتك الشريف وطول باعه وكان يحذر منه سطوته . أفلم يقل عنه وعن أخيه يوم رثى أباهما إنهما :

(قدرين فى الإرداء) بل مطرين فى الإجداء بل قرين فى الاسداف .

فعمّى الشعر على أعوان الشريف وأنداده وعلى المشائخ الزميتين ليكون فى نجوة من ملامزهم ويبعد عن إيذائهم له والإيقاع به . ولكنه كان فى موقع آخر أشد صراحة وأقصر تلميحاً بل كان إلى التعريف أقرب منه إلى التنكير فذكر الشريف بقوله :

(تراضى) أهل دهرك بالمخازى فكيف (تعيب رامقة) بلمح
وأصحابُ (الشريف) ولا تساوٍ كأصحاب بن زُرْعة وابن سَمْح

وكان ابن زرعة وابن سمح من مناطقة النصارى صاحِبَيْ جدَل وتشادق وأىّ تصريح أشد وضوحاً من ذكر كلمة (تراضى) وهى و (المرتضى) من نبعة واحدة . ذكرها فى البيت الأول وعَقب فى الثانى بذكر الشريف .

وقلبتُ وجوه المعنى بالشطر الثانى من البيت الأول فقلتُ أن تصحيفا مقصوداً جرى على هذا العجز ، ، إذ كان أصله :

(فكيف نقيب رافضة) بلمح

إذ لامجال فى المعنى لذكر العين وعيبها فى رمقها ولمحها . وهو معنى بعيدٌ تلاؤمه . ولكن المعنى القريب هو الذى يخيَّل إلىَّ الكشفُ عنه بأن قال:

« إن أهل دهرك تراضوا بوقوع المخازى فكيف لو لمحت نقيب الرافضة ورأيت مايصنع » .

وكان فى احتراسه بكلمة (ولا تساو) أثر خفىٌّ من آثار تهكمه وقرصه بالسخرية بأن أصحاب الشريف غير متساوين فى العلم والمعرفة وهى كلمة تشبه فى تهكمها قول القائل : (ولا نفخر) .

ولولا ماحدث بين أبى العلاء وبين الشريف المرتضى ببغداد من سوء الصلة وشدة البغضاء والأذيّة لحملتُ قول المعرى فى هذا الوجه محملا أقرب إلى الاعتبار والاحترام .

وكان الشريف المرتضى ملهوزاً لدى ناس من جِلّة القوم ببغداد ولعلهم كانوا من أعدائه . فقد حدّث أبو حامد بن محمد الأسفرايينى[1] الفقيه الشافعى أنه كان يوماً عند فخر الملك أبى غالب وزير بهاء الدولة ، فدخل عليه الشريف الرضى فأعظمه وأجلّه وترك ما كان بين يديه من رقاع الناس وقصصهم وأقبل عليه بالحديث والسؤال وظل يحادثه ويفديه حتى انصرف من عنده ثم جاءه بعد ذلك اخوه الشريف المرتضى فلم يعبأ به ولا جامله وانصرف عنه متشاغلا بتافه الامور ، ولم يدْعه للقعود ثم أخذ ينظر بالرقاع والقصص التى بين يديه إعراضاً عنه حتى انصرف . فسأله أبو حامد عن السبب فيما بدا منه نحو الأخوين فقص عليه الوزير قصة فى سماحة الرضى وبخل المرتضى وهزّه وكلَبه وإلحافه

---

(١) موسوعة وجدى ج ٤ ص ٢٥٢

عليه فى السؤال بإسقاط دراهم عنه كان عليه دفعها نفقة لمجرى من الماء أجرى فى بساتينه .

وحار أبو العلاء فى متعبدينَ من شيوخ عصره وقسوسه . كان يعاين فيهم وعاظاً ذوى مكر وحيل ، ينقلبون عن مجالس الإرشاد إلى مقاصف الدنان فيصف أحدهم بهذه الأبيات :

رويدك قد عررت وأنت حرٌّ بصاحب حيلة يعظ النساءَ
يحرم فيكم الصهباء عمداً ويشربها على عمد مساء

وأعياه البحث عن ذوى الدين الصحيح الناسكين لوجه الله فلم يجدهم فقال فيهم :

وقد فتشت عن أصحاب دين لهم نسك وليس لهم رياء

وعلم أن السبحات وسائل للخادعة عن نفوس حامليها الشيوخ فقال :

وليس عندهم دين ولا نسك فلا تغرنكَ أيد تحمل السبحا
وكم شيوخ غدوا بيضاً مفارقهم يسبّحونَ وباتوا فى الخنا سبحا

حتى إذا شفى غليل نقده من الشيوخ التفت إلى القسوس والأحبار أصحاب الطيالس . فإذا غضب على المسلم الذى يخطب فى الجامع فضل عليه القس وقرنه بالشماس واليهودى فذكر عدل الأول وقناعة الثانى فقال :

ما جار شماسك فى حكمه ولا يهوديّك بالطامع
فالقس خير لك فيما أرى من مسلم يخطب فى الجامع

وقد يغضب على القسوس وهم من أهل التطليس فيرى الذئاب أضعف كيداً من شيوخ الطيالسة فيقول :

وأرى الذئاب الطُّلس يعجز كيدها عن كيد شيب أظهروا التطليسا

وأراه راجماً بالظنون حين غلا فى نقده فقال عن البطاريق :

ومومسات توافيها حنادسها بطارقين يخالون البطاريقا

وحين جاءت نوبة أحبار اليهود أدخلهم كير نقده فكشف عن مناقبهم النفسية فى احتواء المال واقتناص النساء فقال :

وليس حبر يبدع فى صحابته إن رام نفعاً بأقوال تقوّلها
وإنما رام نسواناً تزوجها بما افتراه وأموالاً تموّلها

ورفع نقده إلى ذرى الجبال ، فتناول الصوامع ورهبانها ، لأنه لم يجد ممن يزهد يقينا وبغير رياء فقال :

لعمرك مافى عالم الأرض زاهد يقيناً ولا الرهبان أهل الصوامع

لأنه كان يعرف من رهبان زمانه خبيثات أحوالهم فيقول لك :

إذا كشفت عن الرهبان حالهم فكلهم يتوخى التبر والورقا

أما اليهود الذين يتلون التوراة فراح فيهم يقول :

وإنما حمّل التوراة قارئها كسب الفوائد لاحب التلاوات

فلم يسلم من ميسم نقده الكاوى أحد من شيوخ المسلمين ولا من قسوس النصارى وأحبار اليهود .

وما خلا نثر أبى العلاء من نقد من أظهروا التعبد وأبطنوا الجحود فقال فى رسالة الغفران[1] : (وإذا رُجع إلى الحقائق ، فنطق اللسان لاينبىء عن اعتقاد الإنسان ، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويحمل أن يظهر الرجل بالقول تديناً ، وإنما يجعل ذلك تزينا . يريد أن يصل به إلى ثناء ، أو غرض من أغراض الخالبة أم الفناء . ولعله قد ذهب جماعة هم فيما ظهر متعبدون وفيما بطن ملحدون . وما يلحقنى الشك فى أنّ دعبل بن علىّ ، لم يكن له دين وكان يتظاهر بالتشيع وإنما غرضه التكسب . ولا أرتاب أن دعبلا كان على رأى الحكمى وطبقته ، والزندقة فيهم فاشية ، ومن ديارهم ناشية) .

كذلك كان هم أبى العلاء ؛ هتك ستار المنافقين ، وتمحيص الحقائق فى تدّين الناسكين ممن استبطن بريبة ، وانطوى على خبث .

---

(١) طبعه أمين هندية ص ١٢٤

(٢) أهل الأذكار والصوفيون

ليس بدعا أن ينقد أبو العلاء أهل الأذكار ، وأن يتناول بلمزه الصوفيين ، فإن فى نطاق مياسمه الكاوية لموضعاً لمثل هؤلاء .

لقد عرفت الأذكار فى دنيا الإسلام منذ صارت العبادة عادة تتبع . كان التسبيح لله فى السر والعلانية منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن نجمت الأذكار لا يعدو تلاوة ماتيسر من الذكر الحكيم مقتصراً على الأدعية المرتجلة

فلما نشأت حلقات الذكر صار التسبيح طرزاً مكتوبة وتلاوات معهودة تفاقم أمرها حتى بعدت بالقوم عن نهج الدين القويم وسلكت بهم طريق التصوف . ومرت على فنون وأشكال أثرت عن أصحاب الملل وأهل النحل من طوائف ذوى الآراء الدينية والمعتقدات الخاصة ، حتى آلت بهم بعد ذلك إلى أعقاب زمن نحن فيه ، عرف للأذكار ألواناً وضروباً كالمولوية والشاذلية والنقشبندية .

وقد شهدت حفلا لمثل هذه الأذكار فى ديار الشام فى شهر رمضان إذ دعى جلة القوم فى بلدى (دمشق) إلى شهود حفل عجيب قد ارتدى فيه المولويون قمصاً سوداً وبيضاً منفرجة الأذيال وعلى رؤوسهم الطراطير من اللباد ولهم أردان واسعة ، ينفتلون حول النقيب على نغمات الناى ونقرات الدف وهم ينشدون أقوالا مسجوعة فى تسبيح الله وتقديس أسمائه والصلوات على رسله وأوليائه .

وقد رسم أبو العلاء هذه الأذكار فى شعره بلمحات خواطف ، فيهن على اختصارهن أبلغ التمثيل وأحكم الوصف وألذع النقد ، وأحسب أن المعرة وما والاها من بلاد الشام كانت فى عهده تعرف هذه الأذكار ، ولعلها كانت شائعة تدور حلقاتها حول بهرة الشيوخ والنقباء تقرع فيها الدفوف وتصفق الصنوج وتدق المزاهر والعيدان ، ويأخذ الناس وهم يذكرون وجد إلهى وجذب واستغراق وغيبوبة فإذا هم يموجون فى دعاء نظيم وهمهمات

وحمحات . وإن فى صور الأذكار التى نشاهدها فى عصرنا لما يمت بصلة نسب إلى تلك التى عرفها أبو العلاء فشق مساوئها بمباضع نقده .

نقد المعرى أهل التصوف وسفههم وفى هذا رد على من زعم أنه من الصوفية ، وأنه يذهب فى بعض أقواله مذاهبهم ، فكان يرميهم بشواظ من تهكمه فيؤاخذهم أول الأمر باسمهم إذ لم يشاؤوا أن ينتسبوا إلى الصوف :

صوفية ما رضوا للصوف نسبتهم حتى يقال لهم من طاعة صوفوا

وآونة يستخرج اسمهم من مقلوب الصفاء فكأنه يفضل عليهم إخوان الصفاء . فالصوفية عنده مجلبة للمغانم ، وأصحابها من جند إبليس :

لو كنتم أهل صفو قال ناسبكم صفوية فأتى باللفظ ما قلبا
جند لإبليس فى بدليس آونة وتارة يحلبون العيش فى حلبا

والظاهر أن بدليس وهى اليوم بتليس بلدة فى إرمينية كانت وحلب مراحاً للصوفيين يجدون فيهما حظوة دنيا . ومرتزق دين زمن أبى العلاء إن لم يكن أغراه الجناس بهذا البيت .

وقد اتخذ لمعرض ثلبهم سبيلا شعرية حلوة فخاطب بأبياته سحابة تجود على الصوفيين كما تجود السحابة الثرة على الأرض المجدبة وكأن السحابة جاهلة تضع الندى موضع السيف .

إنهم نفر يلبسون التصوف نفاقاً وخداعاً ، ويقومون فى أذكارهم متواجدين فيدورون كالسكارى وما هم بسكارى ، ويرقصون فى الذكر وهم لا يبتغون إلا در السحابة ونبات الأرض وخير الزروع ، فقال :

رويدك ياسحابة لاتجودى على السبخات من جهل هميت
طلبت ديانة بين البزايا لقد أشوت سهامك اذ رميت
تزيّوا بالتصوف عن خداع فهل رزت الرجال أو اعتميت
وقاموا فى تواجدهم فداروا كأنهم ثمال من كميت
وما رقصوا حذاراً من إله ولا يبغون إلا ما حميت

وناظر الصوفية بشعره ، وكأنه يجادلهم فيتندر عليهم ويعبث بهم بنقد متهكم . ثم يصدمهم بنقد جاد قادح ، كأسد يلهو بفريسته حيناً ثم يصفعها بضربة من براثنه تقضى عليها فيلتهمها بعدها .

يقول أبو العلاء للصوفيين نحن قطنية وأنتم صوفية وحسبي القطن لباساً . وهو كلام تهكم وهزل . ثم يجد فيصفهم بالخفوق فى البلاد بغية اللذة والبطنة فيقول لهم :

نحن قطنيـة وصوفيـة أنتم — فقطنى من التجمل قطنى [1]
تقطعون البـلاد بطناً لظهر إنمـا سعيكم لفرج وبطن

كذلك كان شأن أبى العـلاء مع أهل الأذكار والصوفيين . لقد اشـتد عليهم وكان لهم خصماً عنيدا .

(٣) المنجمون والتنجيم

ما تلوت قول أبى العلاء .

كأن منجم الأقـــوام أعمى لديه الـكتب يقـرؤها بلمس

إلا اهتززت عجباً لهذه الدرة الإنسانية النادرة وذكرت قول الشيخ كمال الدين بن الزملكانى الذى قال عن أبى العلاء [2] : (هو جوهرة جاءت إلى الوجود وذهبت) . فهل كان أبو العلاء يرى بعين الغيب ماصار إليه فن عصرنا هذا إذ بلغت فيه الحفاوة بالعميان فى ديار الغرب والحدب عليهم ، وتيسير أسباب الحياة ومرافقها لهم أن ابتكروا من أجلهم كتباً ذوات حروف بارزة تقرأ باللمس .

فويح أبى العلاء من قبل ألف عام ، كيف أبصر خلف ستار الغيوب هذه الـكتب التى يتلوها العمىُ باللمس . فشبه المنجم بأصحابها . ولـكن أبا العلاء

---

(١) قطنى أى حسبى
(٢) أبو العلاء المعرى لتيمور باشا ص ١٢٩ والصفدى فى نكت الهميان

كان يتصور قراءة المكفوفين للكتب أمراً موهوماً لا يمكن حدوثه ، ولذلك كان عنده المنجم رجاماً بظهر الغيب واهما . ولو علم ، رحمه الله وهو فى رمامه الدريسة ورقدته التى استراح بها من وعثاء الحياة ، أن ما خاله وهما حققه علم العصر . ولهش فى ثراه وبش ، وبات هادىء البال قرير الروح على صحبه العمى المكافيف الذين إذا جد دهر العرب فى رقيه أمكن وضع كتب عربية يقرؤها العميان باللمس ولعل كتب أبى العلاء تكون بينها .

وما كان للمنجمين أن ينجوا من قنيصة النقد العلائى ومنهم فى كل بلد نفر كثير . أكلوا مال الناس بالكذب وأفسدوا العقول بالوهم . أحاط أبو العلاء بأحابيلهم ، وعرف دخائلهم ، وتبين مظاهرهم ، وأدرك خطرهم على الحياة الاجتماعية فنبه المجتمع عليهم ، وحذره منهم . ويوقن المتقصى لشعره فيهم أنه كان يعرف منهم ناساً بأعيانهم جعلوا التنجيم لهم باب رزق وهم جهلاء ما عرفوا من المغيبات شيئاً وفوق ذلك قد ارتكبوا المخازى فى بيوتهم بسبيل التنجيم وجاؤوا بالفساد فقال أبو العلاء عنهم :

ينجمون وما يدرون لو سئلوا عن البعوضة أنّى منهم تقف
ولو درت بمخازيهم بيوتهم هوت عليهم ولم تنظرهم السقف

وكان إسلامى العقيدة فى أمر الغيب والعلم به يحلف أنه لا يدرى المتفائل والمتطير بما يكون . ومن تعاليم الإسلام أن لا فأل ولا طيرة ، فقال :

آليت لا يدرى بما هو كائن متفائل فى الأمر أو متطير

ويقول بأن علم الغيب لله وحده وأنه لا علم به للمنجمين :

يحدثنا عما يكون منجم ولم يدر إلا الله ما هو كائن

وأروع من ذلك كله نقده للنساء إن وقفن بالمنجم أو أدخلن عليهن بيوتهن المنجمات ، فيحذرك من ويلات المنجمين ويوصيك بإبعاد النساء عن السواحر الماكرات أولات العزائم اللواتى يدعين تأويب الغائب وعطف الهاجر ، وإخراج الكنوز من بيوت الفقراء . وقد سرد ذلك كله بأبيات

على اختصارها صورت بلمحات حياة المنجمات : قال فيها وهو يعنى النساء :

وإن جئن المنجم سائلات ... فلسن من الضلال بمنجمات
وأبعدهن عن ربات مكر ... سواحرَ يَقْتدينَ مُعزِّمات
يقلن نهيج الغياب حتى ... يجيئوا بالركاب مُزعمات
ونعطف هاجر الخلان كيما ... يزول عن السجايا المسئمات
زعمن بأن فى مغنى فقير ... كنوزاً للملوك مصممات
فلا يدخلن دارك باختيار ... فقد ألفيتهن مُذمَّمات

وكان يرى المنجمين خطراً على المجتمع كاللصوص وقطاع الطريق ، فكما ن أولئك جناة البدو فهؤلاء جُناة الحضر فيقول :

قطع الطريق بمهمه ونظيره ... فى المصر فعلُ منجم ومُعزِم

ولذا فإنه ينصب نفسه للتشريع وحد الحدود ويتمنى لو كان له الحكم فى إصلاح البلاد فينفى عنها المنجمين الذين يفترشون جنبات الدروب . فمنهم الأعمى البخيل ، وفيهم الفاجر البصير ، وكل منهم يهب فى الصباح إلى مكسب النفاق ، ومتجر البهتان فينصب الاسطرلاب لاقتناص الحمق فتقف به واحدة حمقاء ، فينظر إليها بعينى أسد يريد التهامها . وكان قد أقلقها تغيُّر زوجها فسألت المنجم عن تغيُّره ، فهاج وماج ، وجعل يكتب بالزعفران تعويذة لها وحجاباً ، وإنه ليفعل هذا وهو يقول إن له مع الجن عشرة ، وله عليهم إمرة. كذلك يقول أبو العلاء :

لو كان لى أمر يطاوع لم يشن ... ظهر الطريق يد الحياة منجم
أعمى بخيل أو بصير فاجر ... نوء الضلال به مرب مثجم
يغدو بزخرفه يحاول مكسباً ... فيدير اسطرلابه ويترجم
وقفت به الورهاء وهى كأنها ... عند الوقوف على عرين تهجم
سألته عن زوج لها متغير ... فاهتاج يكتب بالرقان ويعجم
ويقول ما اسمك واسم أمك إننى ... بالظن عما فى الغيوب مترجم

يولى بأن الجن يطرق بيته وله يدين فصيحها والأعجم

فإذا بلغ أبو العلاء من نقد المنجمين هـــذا المبلغ أسف على من يترك المكاسب الشريفة ويتعلق بصناعة الأوهام واستقراء النجوم ويرى أن خفق آباط الإبل فى الأسفار أعز فى وعثائها من كسب المنجمين الذين لو أقيمت عليهم الحدود لرجموا لسبب هذه المكاسب ، فيتبع أبو العلاء قوله الفائت بهذه البيتين :

أفما يكر على معيشته الفتى إلا بما نبذت إليه الأنجم

رجْم التنائف بالركاب أعز من كسب يحق لربه لو يرجم

ذلك نقد أبى العلاء لأفعال المجتمع تصدى لها بالنقد فهجم المجتمع عليه بالعداوة والبغضاء .

الفصل الرابع

(نقاد المعرى)

(١) هجوم المجتمع على المعرى

ليس هجوم المجتمع على أبى العلاء جديداً فى حوادث الدهر ، فقبل أبى العلاء وبعده هجمت الجماعة على كثير من العلماء والفلاسفة والمصلحين ، وهمّت بتقتيلهم ، بل فتكت بخلق منهم وعذبت ناساً وشتت شمل آخرين . وقد ابتلى بهذه المحنة أرباب العقول وأهل الفن، فلم يخل تاريخ واحد منهم من حادثة أقضت مضجعه أو أزعجته عن وطنه أو طرحت به مطارح الهوان .

والمجتمع وقد اصطلحت عليه الجهالة والضلالة فى كثير من أحيانه ألف ماتواضع عليه الناس ، فهو لا يلبث أن ينكر على المصلحين كل تغيير فى أمر من الأمور التى ألفتها الجماعة . بلاء عرفه البشر منذ كانوا على الأرض امتحن به الرسل والأنبياء ثم ابتلى به العلماء والمصلحون والزعماء والمرشدون .

عرف أبو العلاء عداوة المجتمع له قبل رحلة بغداد . لأننا نجدله فى ديوان (السِّقط) أشعاراً قالها فى حاسديه . قدح فيها أحد اعدائه ، وكان أبو العلاء لا يرى حمائل سيف القادح مساوية لرباط نعليه فقال فيه :

ويقدح فى عُلاى وإن شسعى ليأنف أن يكون له نجادا

ثم يعيد مثل هذه الشكوى عن حاسد آخر أرسل فيه لسانه إذ رأى ذيوع فضله وثناء الناس عليه فقال :

بأىّ لسان ذامنى متجاهل على ٍوخفقُ الريح فىّ ثناء

تكلم ؛ بالقول المضلل حاسد وكل كلام الحاسدين هراء

وكان منتظراً لأبى العلاء أمثالُ هؤلاء الحساد . وأىُّ امرىء خلا دهره منهم . أفما كان أبو الطيب المتنبي مملوء الدرب بهذا الشوك حتى حسده الحساد على الحياة .

ويصرّح أبو العلاء بشكاته حساده أنهم كانوا يتعاوون من حوله باللمز والشتيمة النابحة. وكانوا يمضون فى أثره ولكن لايشقون غباره فقال عنهم .

تعاطوا زمانى وقد فتهم فما أدركوا غير لمح البصر

وقد نبحونى ومامجتهم كما نبح الكلب ضوء القمرْ

ولمارحل إلى بغداد وجد الحساد ثمة . حتى بات فقير الجيب بعيد المزار محسود الفضل منقطع الشمل يبكى بمثل قوله :

فأصبحت محسوداً بفضلى كله على بعد أنصارى وقلة مالى

لقد لقى على ضفاف دجلة تجهماً من البغداديين، وعداوة من بعض أشياخهم مما زهده بالعراق وكان أمه للمقام فيه . فقفل راجعاً ، والنار تكوى حشاه فحاول شُكْرَ العراقيين وإظهار تولعهم به ولزومهم إياه. ثم كرّ بالشعر والنثر عليهم ، ينقد عاداتهم وأخلاقهم وبخلهم بالعلم. فكان بذلك مؤرثاً للنار التى أوقدها أعداؤه حوله .

وفيما كتبه إلى خاله أبى القاسم شاهداً على ذلك فقال :

« وكنت ظننت أن الأيام تسمح لى بالإقامة هناك فإذا الأمةُ أبخل بضرتها والعبد أشح بكراعه والغراب أضنُّ بثمرته ووجدت العلم ببغداداً كثر من الحصا عند جمر العقبة وأمكن من الماء بخُضارة وأقرب من الجريدة باليمامة ولكن على كل خير مانع . ودون كل درة خرساء موحيّة أو خضراء طامية »

وحين عاد إلى المعرة ولزم داره حبيساً باختياره أخذ فى إملاء الكتب والرسائل ونظم الشعر فى نقد الناس وتفنيد آرائهم الفائلة والكشف عن عيوبهم المخجلة ، فتناول الأمراء والأشياخ وأهل الثراء . فكان كل هؤلاء إلباً عليه،

وحرباً لديه . وكان وحده يذبُّ عن نفسه فى وسط هذا التيار اللاعج بهجوم المفترين وعدوان الشانئين .

ولما ذاع صيته عم فضله ، وأصبح فى عصره حجة الأدب وموئل الشعر وبيت الحكمة وباقعة الدهر عظم خطبه على الحاسدين فحاربوه بكل وسيلة قدروا عليها .

كانوا يدسون عليه عند الحكام كما فعلوا عند صاحب حلب فأوغروا عليه صدره حتى هم هذا بقتله فأرسل اليه أجناداً لإحضاره إلى حلب فدفع الله عنه ذلك البلاء .

وأنشب فى ذمه الأظافرَ علماءعاصروه ، وآخرون جاءوا بعده . فلم يسلم فى حياته وفى موته من القادحين ، فألف أحد معاصريه كتاباً فى ذمه سماه (رجمة العفريت) وهو عبد الله بن سعيد أبو منصور الكاتب المتوفى سنة ٤٨٠[١] .

وكان رواده وبعض أصدقائه يلزونه فى المجلس كما فعل القاضى المنازى[٢] إذ ذكر له مايطعن عليه الناس ، وما يوقعون ألسنتهم فى أمره . فقال له أبو العلاء : (مالى وللناس قد تركت دنياهم . فقال القاضى وأخراهم)فاضطر أبو العلاء أن يصمت وألا يرد على ضيفه ، وظل ساكتا حتى قام المنازى وانصرف . وكان القاضى أبو يوسف القزوينى فى حضرته يوماً فقال المعرى فى عرض حديثه : (لم أهج واحداً قط) فأجابه القزوينى برقاعة وجفاء : (صدقت إلا الأنبياء) .

وانظر إلى أحكام شانئيه تلقها جرت بروح الضغينة . فلم يناظروه كما فعل الداعى بمقارعة الحجج وإنما سبوه وشتموه وتناولوه بالباطل . فحقرهم تاريخ الأدب ، هذا الجبار الذى يكتب بالحق وبالعدل بعد طويل السنين .

---

(١) الراجكوتى ص ٢٦١

(٢) نكت الهميان ص ١٠٤

قدحه الإمام فخر الدين الرازى فقال عنه : (قد هذى هذا بشعره)[١] ولعل الامام قد أغرى بهذا الجناس الثقيل فجعل المعرى من ضحايا تكلفه البديع وتصنعه فيه .

وقال عنه الشيخ شمس الدين الذهبي : (إنه زنديق) . وهجاه القاضى أبو جعفر محمد بن اسماعيل الزوزنى بقوله البذىء ونظمه الركيك :

كلب عوى بمعرة النعمان لما خلا عن ربقة الأديان

أمعرة النعمان ما أنجبت إذ أخرجت منك معرة العميان

وكان الإمام الزمخشرى يرمى المعرى بنبال طياشة فقال عنه لما سمع بيته فى رثاء أبى الشريفين :

حمراء ساطعة الذوائب فى الدجى ترمى بكل شرارة كطراف

(وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن . ولتبجحه بما سول له من توهم الزيادة جاء فى صدر بيته بقوله حمراء توطئة لها ، ومناداة عليها ، وتنبيهاً للسامعين على مكانها . ولقد عمى — جمع الله له عمى الدارين — عن قوله عز وجل « كأنه جمالة صفر » أبعد الله إغرابه فى طرافة وما نفخ شدقيه من استطرافه)

ولم يسلم من لسان عبد الرحمن بن الجوزى فقد قال عنه فى كتابه (تلبيس إبليس) : ولم يزل متخبطاً فى تعثره ، خائفاً من القتل إلى أن مات بخسرانه .) وزاد على الجميع ياقوت الرومى . وكان عليه أن يلزم فى تاريخ أدبه الكبير التجرد من الدخائل ليجىء كتابه ثقة . فزلت قدمه فى حمأة الجهلاء إذ قال عن أبى العلاء :

(كان حماراً لا يفقه شيئاً)[٢] . ثم أتبع سبته هذه بائنتين فقال عنه :

(مجنون معتوه) ثم قال : (وليته لما ادعى العقل خرس) .

---

(١) الموضع السابق

(٢) معجمه ج ٣ ص ١٦٩

ومضى ياقوت ينضح تاريخ أدبه فى أبى العلاء من غلة نفسه ، وحسد ضميره . فشوّه صورة حكيم المعرة ودرة الزمن كله — فى كتابه — وعدا على الأدب وحصانة تاريخه بمالا يجمل بالمؤرخين ولا يجوز بالمتأدبين .

ولكن العدل لم يمت . فقد قيض الله لأبى العلاء ابن العديم[1] (الصاحب كمال الدين رحمه الله تعالى فألف فى مناقبه كتاباً سماه «العدل والتحرى فى دفع الظلم والتجرى عن أبى العلاء المعرى »[2] وقال فيه إنه اعتبر من ذم أبا العلاء ومن مدحه فوجد كل من ذمه لم يره ولا صحبه . ووجد من لقيه هو المادح له) وقال ابن الوردى : (وصنف بعض الأعلام فى مناقبه كتاباً وسماه (دفع المعرة عن شيخ المعرة) .

ثم أدلى ابن الوردى برأيه الخاص فى أبى العلاء وتذبذبه فى الميل معه والميل عليه تارة بعد تارة . فدل على نفسه الطيبة وسذاجته العلمية وكان أعدل بكثير ممن جاروا على أبى العلاء . فقال : (وأنا كنت أتعصب له لكونه من المعرة ثم وقفت له على كتاب (استغفر واستغفرى) فأبغضته وازددت عنه نفرة ونظرت له فى كتاب لزوم مالا يلزم فرأيت التبرى منه أحزم . ثم وقفت له على كتاب (ضوء السقط) فكان هذا الكتاب عندى مصلحا لفساده ، موضحاً لرجوعه إلى الحق وهو خاتمة كتبه ، والأعمال بخواتيمها .

وقد يعذر من ذمه واستحل شتمه فإنه عول على مبادىء أمره ، وأوسط شعره ويعذر من أحبه وحزم سبه فانه أطلع على صلاح سره وما صار اليه فى آخر عمره من الإنابة التى كان أهلها ، والتوبة التى تجبّ ماقبلها وكان يقول رحمه الله ، أنا شيخ مكذوب عليه)

فاذا كان أبو العلاء كما يقول ابن الوردى (شيخا مكذوباً عليه) فما أحرانا أن نطرح عنه هذا الكذاب الذى كِيدَ به فى حياته وبعد موته . وكان الشيخ

---

(١) تاريخ ابن الوردى جـ ١ ص ٣٠٩

(٢) نسخة المجمع العلمى العربى بدمشق التى نقلها وصححها واضعو كتاب (تعريف القدماء بابى العلا. تسمى كتاب ابن العديم (الانصاف والتحرى)

يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل) كما يقول ابن العديم[١] (ويعمل تلامذته وغيرهم الأشعار على لسانه يضمنونها أقاويل الملحدة قصداً لهلاكه وإيثاراً لإتلاف نفسه)

وتقول الناس عليه حتى شكسكوه بحاله فقال : (وزاد تقول الناس علىّ حتى خشيت أن أكون أحد الجهال)[٢] .

والواضح أن أصحاب أبى العلاء وتلامذته كانوا أقل نفراً من أعدائه وكان فيهم من يخادعه عن هذه الصحبة ففيه يقول المعرى :

كم صاحب يتمنى لو نعيت له وإن تشكيت راعانى وفدّانى

فلما مات يرحمه الله ، لحقه الحساد بعد موته إلى الدار الآخرة فرأوه فى منامهم . فقد روى غرس النعمة محمد بن هلال الصابى[٣] أن غلامه أبا غالب ابن نهان رأى أبا العلاء فى منامه فقال له : (رأيت فى منامى البارحة شيخاً ضريراً وعلى عاتقه أفعيان متدليان إلى فخذيه وكل منهما يرفع فمه إلى وجهه فيقطع منه لحماً يزدرده وهو يستغيث . فقلت وقد هالنى : من هذا فقيل لى هذا المعرى الملحد .

وروى القفطى[٤] أنه كان يقع فى دين أبى العلاء ثم جاءه فى المنام معاتباً فأقلع عن ذلك .

* * *

فلئن هجم المجتمع هذه الهجمة النكراء على أبى العلاء حياً وميتاً ، بأمرائه وشيوخه ومؤالفيه فان ذلك آية عظمته وسر خلوده . ولا شك فى أنهم طمسوا لنا معالم كثيرة من فضائل حكيم المعرة فلم تصل إلينا لأنهم لم يذكروها لنا

---

(١) معجم ياقوت من قول ابن العديم

(٢) رسائله بيروت ص ٩٦

(٣) عن الراجكوتى ص ٢٥٦ ثم كتاب تعريف القدماء بابى العلاء فى قسم (إنباه الرواه على أنباه النحاة لأبى الحسن القفطى ص ٦٤)

(٤) تعريف القدماء ص ٥٢

وقد شغلتهم عنها شواغل ذمه وتأثر مَزَلاته . ولو هُمْ أرّخوه لنا على نحو ماأرّخ علماء الأدب الغربيون تاريخ أدبائهم لرأيناه على صورة صحيحة سالمة من التشويه ، بريئة من كواذب الألوان .

فرحمه ، وجاد ثراه بنعماه . فلقد عاش مقهوراً ، ومات مسكيناً . وهو على الرغم من كل ذلك قد عرف الناس قدره لدن موته فقد رثاه أربعٌ وثمانون شاعراً على قبره ، وقرئت على ضريحه مائتا ختمة فى أسبوع واحد .

* * *

وخلت العصور حتى كان عصرنا فألف جهابذة علمائه عن أبى العلاء كتباً تبقى أمَدَ ذكره . كان فيها السبقُ منذ ثلاثين عاماً للدكتور طه حسين . وهبّ بنو عصرنا اليوم من كل أقطار العربية فى كل بلد ينطق أصحابه بالضاد يحتفون بذكرى ألف عام تمر على مولد أبى العلاء المعرى[1] . فأقام له المجمع العلمى العربى بدمشق أياماً مشهودة فى مهرجان أغرّ محجل[2] دام أياماً وقد دعى إليه جِلة أهل العقل والأدب وأساطين العلم والبيان وفحول الشعراء من بلاد العرب كلها . فأشاد بعبقريته الخطباء وأنشد فيه الشعراء وطاف المحتفلون بديار الشام وأقيمت فى كل بلدة لهم مآدب روائع لهذه الذكرى ووافوا (معرة النعمان) فوقفوا بضريح أبى العلاء صامتين تهيمن على نفوسهم نفحة من ساكن الضريح . وقفوا بقبره ممجدين ذياك الكوكب الثاقب الذى لمع فى سماء الشام منذ ألف عام وكانت دنيا العرب نبعة نوره ، وفيضَ عبقريته وشعوره .

وأقيمت مهرجانات لأبى العلاء فى أيامنا بهذى الذكرى فى لبنان وفلسطين والعراق وبلاد المغرب وفى أمريكا لدى العرب المهاجرين . وصدرت نشرات من المجلات والصحف عن أبى العلاء لهذه المناسبة الجليلة ونهضت مصر بأعباء كتبه فتألفت بدار الكتب المصرية لجنة من العلماء والأدباء يشد أزرها

---

(١) وضعت كتابى هذا قبل العيد الألفى لمولد أبى العلاء المعرى مشاركة فى إحياء ذكراه . وقد حال تحضيرى للدكتوراه فى الأدب العربى من جامعة فؤاد الأول دون ظهوره يومذاك (المؤلف)

(٢) فى ٢٥ (أيلول) سبتمبر ١٩٤٤

الدكتور طه حسين فأصدرت كتاباً حوى كل ماقال الأوائل بأبي العلاء[1] ثم قفته بشرح واف لسقط الزند وضبط لشعره .

* * *

ذلك عدل الإنسان ، مهما جار الزمان ، فليت أبا العلاء من خلف الغيوب يحس بروحه العالى ما آل إليه قدره بين ظهرانيْنا نحن أبناءَ القرن الرابع عشر للهجرة من حفاوة بأبي العلاء المعرى بالغة ، واعتراف بنبوغه ، واغتراف من فيض عبقريته وحكمته .

(١) كانت مصر سباقة إذ اقامت أسبوعا المعرى فى جامعة فؤاد الأول منذ بضع سنين وكان وفدها الذى ناب عن وزارة معارفها وجامعتيها وصحافتها فى المهرجان الألفى لأبى العلاء فى سورية الدكتورين طه حسين وعبد الوهاب عزام والأساتذة أحمد أمين وأحمد الشايب وعبد الحميد العبادى وابراهيم المازنى .